
يحدث قبل
الثانية عشرة
a day for me
date
list
check
اللعبة لا بد أن تحتوي على
بعض القواعد لتحقيق المتعة
القواعد جزء لا يتجزأ من اللعبة
أن تحاول منع نفسك من التدخل في الحدث وتتراجع
ثم تشعر بالذنب فتحاول اللحاق بالحدث
ثم تخاف أن تفقد بقية الحكاية فتحاول منع نفسك من التدخل
مرة أخرى
أعدك إن لم تتدخل في الأحداث بالمزيد من الحكايات.
وإلا فستكتب نهايتك بيدك.
رواية
دعاء معوض
ساحر الكتب

أنت تقبع في الظلام

تبكي في الظلام

تتحسس كل شيء ولا تجد أحدا سواك

من أقحمك في هذا

وكيف سبيلك إلى الخروج

هنا تتذكر الضحايا الذين سبقوك

كل منهم كانت له طريقة القتل الخاصة به

هل تضاف طريقة جديدة تخصك أم تقتل بطريقة أحدهم!

(١)

في التسعينيات...

كان يومًا طويلًا وعصيبًا، بدأه مروان بكتابة جزء كبير من روايته البوليسية القادمة أرهقته الكتابة حتى أنه توقف فجأة معلنا استسلامه واستحالة كتابة كلمة أخرى جديدة رغم أن الأفكار لازالت تتدفق إلى عقله، أخذ فنجان القهوة إلى الغرفة وبدأ في تبديل ملابسه فقد أدرك أن الوقت تسرب من بين يديه أثناء انغماسه في الكتابة، لكن أحداث الرواية لم تفارقه وحاوطته شخصياتها كأنها أشخاص حقيقيون، تدور حوارات بينهم في مخيلته، وهناك أحداث تطرأ إلى ذهنه فجأة ويجب تدوينها فورا لكن عليه التوجه إلى الندوة حالا لم يعد هناك وقت.

قضى وقتا طويلا في ندوة جمعت بينه وبين مالك دار النشر التي ينشر معها جميع أعماله وحضور كبير من الكتاب والقراء والمثقفين، استغرقت الندوة وقتا أطول من المعتاد ربما كان الجميع يشعرون أنه سيغيب عنهم فترة طويلة وهم لم يعتادوا منه على ذلك فهو بينهم دائما ومستعد لأي ندوة تنظمها أي جهة من أجل مناقشة أعماله في أي وقت.

مناقشة القراء معه تشي بما يدور في خلدهم ويظهر على

ملامحهم وهم يتساءلون:

كيف يفكر في جريمة بهذه البشاعة؟!

وكيف نسج خيوط الجريمة بهذه البراعة؟!

كيف يرسم شخصيات الرواية بهذه الدقة المتناهية حتى أنك تشعر أنها حقيقية وأنك قابلتهم يوما ما؟!

وآخرون صرحوا له بدون خجل أن بإمكانه صنع الجريمة الكاملة بدون أن يكتشفها أحد.

الندوة دارت حول روايته الجديدة والتي أثارت بلبلة حيث تذكر الجميع الكاتب الأمريكي المغمور الذي نفذ جريمة كان قد كتبها بالفعل في روايته ولولا هذه الرواية ما تم ربطه بالجريمة إطلاقا حيث نفذها ببراعة ودقة وذكاء، يمكنهم تشبيه مروان به مع الفارق أنه نال شهرة واسعة ونجاح بارع في عالم الروايات البوليسية على عكس الكاتب الأمريكي.

كل شيء حوله يستطيع تحويله إلى كائنات حية يستخدمها في كتاباته، خيال الأشياء يراه أشباح ترقص، سحابة في السماء يتخيلها قاتل يمسك بخنجره ويطعن رجل آخر، حتى أحلامه تحمل مشاهد دموية تلهمه أحيانا لكتابة رواية جديدة عن جريمة لم يتفتق ذهن أحد للكتابة عنها ولم يتفتق ذهن قاتل لتنفيذها.

يعترف أن الكتابة في الجرائم تشغل حيزًا كبيرًا من تفكيره، إن انشغل عنها تتلصص على عقله وفي الوقت المناسب تقتحمه تقذف له خيط جديد يتلقفه بسرور بالغ.

لا يريد أن يترك الحياة غريبا كما دخلها غريبا، لا يريد أن يرحل قبل ترك أثر قوي في نفوس الناس، جمهور القراءة ليس كبير، لا يهم فليترك أثر في نفوس بعض الناس وليؤثر البعض في دوائرهم المقربة حتى يصل تأثيره يوما ما إلى أكبر عدد ممكن من الناس، يريد ذلك بقوة حتى لو حدث ذلك بعد مرور مائة عام على وفاته.

لم يقتنع أحدا في أسرته به ككاتب وعندما تخرج في كلية التجارة وقرر أن مستقبله في الكتابة وأنه لا يصلح للعمل في وظيفة روتينية بين الأرقام والنقود وكيفية التهرب من الضرائب، صرخ والديه في وجهه:

الوظيفة هي الأمان، المعاش عند الكبر .

الكتابة لا تفتح بيتا، أتظن نفسك نجيب محفوظ!

والداه صنعا أسرة عادية متوسطة في كل شيء، هما أيضا انحدرا من أسرتين متوسطتين في كل شيء، الأب موظف في إحدى المصالح الحكومية بالكاد يستطيع تدبير المصاريف الشهرية لأسرته، والأم التي تتابع كل ما تعرضه

القنوات المصرية الثلاث الرئيسية وهي تطوي كومة الغسيل التي بجوارها.

كبر الوالدان وتبدلت وظيفة الأب بالمقهى بعد بلوغه سن المعاش لكن الأم بقت كما هي مع كومة الغسيل وزاد على ذلك الشجار الشهري بعد أن حل المعاش الصغير محل المرتب.

وكبر أيضا مروان وأصبح كاتبا هاما بارعا في مجاله ويجني دخل لا بأس به، أخاه رامي أيضا كبر وتخرج في كلية التجارة وحقق أمل والديه فغرق بين الأرقام والعمليات الحسابية والأوراق المصرفية وأصبح موظفا روتينيا صاحب معاش عند الكبر ومقعد على المقهى في انتظاره منذ الأن.

غرفة صغيرة جدا لكل من الأخوين، بالأحرى كانت غرفة كبيرة ولكثرة شجارهما بسبب فرق العمر بينهما والذي يصل إلى عشر سنوات حيث يحب مروان الكتابة ليلا مع سماع الموسيقى الهادئة بينما رامي لابد أن ينام مبكرا ليستيقظ مبكرا مستعدا للذهاب إلى المدرسة، قام الأب بقسم الغرفة إلى غرفتين صغيرتين.

والآن تمتلئ غرفة مروان بالكتب والروايات والأوراق والأقلام وشرائط الموسيقى التي تبعث على تدفق الكلمات على الورق، بينما غرفة رامي يملأها السرير والدولاب فقط

فليس له موهبة أو ميل لشيء بعينه هو كأبيه بالأمس عندما كان يعود من عمله ليتناول الغداء وينام قليلا ثم يشاهد التلفاز أو يخرج مع أصدقاءه.

مروان شاب يبلغ من العمر ثلاثين عاما أسمر اللون متوسط الطول والبنية ملامحه هادئة، عندما ترى نظارته الطبية تشعر أنها جزء من ملامحه وليس فقط من أجل تحسين الرؤية، ملابسه كلاسيكية فضفاضة تعطيه عمر أكبر من عمره الحقيقي لكنه متمسك بها فهي تمنحه إحساس بالوقار، كما أن السيجارة أصبحت جزء منه فنادرا ما تراه بدونها، وهو ينفث دخانها بطريقته الخاصة حيث يعتقد أنها تضفي عليه مظهرًا يجذب الفتيات إليه بينما هن يقعن تحت تأثير كلماته وليس دخانه.

أدار المفتاح في باب البيت والسرير يداعب مخيلته، يريد النوم بعمق حتى دون أن يخلع ملابسه يوم شاق ومناقشات متشعبة في أمور عدة يشعر بألم في رأسه وفخر بنفسه في ذات الوقت.

البيت الصغير هادئ ومظلم إلا من مصباح صغير يساعدك ألا تتعثر عند الدخول، الجميع سافروا في عطلة صيفية إلى رأس البر لم يستطع الذهاب معهم بسبب الندوة الثقافية ووعدهم باللحاق بهم لكنه لن يفي بالوعد اليوم فهو مرهق

بشدة.

دلف إلى البيت متواضع الأثاث، المرتب رغم قلة الإمكانيات، النظيف البراق رغم صحة والدته التي تضعف.

فجأة أزعجه الهاتف برنينه المرتفع، اليوم كان حافل، حلقه يكاد يجف من كثرة الحديث، وعقله توقف تماما غير مستعد لأي حوار آخر.

جلس بجوار الهاتف ونفخ بقوة وهو يخلع قميصه وينظر إلى الهاتف ويلعنه ويلعن من يتصل عبره، في النهاية رفع السماعة ولم يكن توقعه سليمًا فقد توقع أنه قارئ يريد تهنئته أو ربما يريد مناقشته في فكرة ما طرحها في روايته، سمع صوت أنثوي رقيق يقول:

- أستاذ مروان؟

أجاب:

- نعم من يتحدث؟

أجابت:

- لا يهم.

تعجب من الإجابة لكنه مرهق إلى حد كبير لذلك أختصر الجدال وسألها: هل أستطيع أن أساعدك؟

قالت: نعم أريد أن أحكي لك حكاية.

قال مستهزئا:

- حكاية؟ ليس لدي وقت الآن.

قالت:

- هذا أنسب وقت.

ضحك بينما يخلع حذائه وقال:

- هذا الوقت المتأخر من الليل أنسب وقت!! هل هذه حكاية ما قبل النوم؟!

قالت:

- إذا أردت أن تعتبرها كذلك حسنا لا مانع.

قال:

- وإذا رفضت؟

قالت في ثقة:

- لن ترفض فضولك سيدفعك لسماعي.

قال:

- ربما ليس لديك ما يثير فضولي.

قالت:

- حتى وإن قلت لك أن هناك جرائم غامضة، سيكون لديك وحدك حقيقتها.

كان يخلع جوربه وتوقف للحظات بعد كلماتها ثم قال:

- نحن لا نعرف بعضنا البعض كي تطرحي علي أمر كهذا.

قالت:

- مطلوب في الأمر ألا تعرفني أما أنا فأعرفك جيدا لقد بحثت عنك ووجدت أنك بارع في صنع الجرائم وكتابتها وإدخال القارئ معك في مغامرات ممتعة، سأدخلك معي في مغامرة جديدة مليئة بالإثارة، ما رأيك؟

قال ساخرا: حقا!

قالت: أليس مثير أن تكون الوحيد الذي يعلم كل شيء بينما الآخرون لا يعلمون أي شيء.

أثارت الفضول بداخله لكنه تظاهر بلامبالاة قائلا:

- وما الفائدة؟

قالت:

- لماذا لا تجرب وتعرف الفائدة بنفسك؟

أنا أعطيك فرصة كي تكون خلف الكواليس تعرف كل شيء كيف بدأ وكيف أنتهى.

صمت لحظات ثم وضع سماعة الهاتف لينهي المحادثة.

لا يعرف ما دفعه لإنهاء المحادثة رغم أنها أثارت فضوله هناك شعور بالخوف يغلفه لذلك حاول إقناع نفسه بأن تلك لعبة من إحدى القراء تختبر بها مدى قوته وصلابته فقد عرف عنه الجميع قلبه الميت وقراءاته الواسعة في عالم الجريمة، لم تكن الهواتف قد بلغت أوجها في التكنولوجيا مثل الآن، فقط تدير قرص الهاتف للاتصال، ليس من السهل تتبع شخص ما، ليس هناك هاتف محمول أو حتى الجهاز الذي يظهر رقم الطالب.

الأمر بدا مريبا لكن فضوله من الممكن أن يجعله أكثر ريبة إذا ترك الأمر له، ومن الممكن أن يجعله العالم بجميع الأمور كما تدعي هذه المرأة حقا ومن الممكن أن يجعله طرف في هذه المغامرة الغامضة وهذا أمر خطير.

انتفض على رنين الهاتف المزعج مرة أخرى، تردد قليلا لكنه في النهاية أجاب بحدة:

- نعم

قالت وكأنها تقرأ أفكاره:

- ما الذي يخيفك، ما هو المريب في الأمر، أليست حياتك كلها عن الجرائم والالغاز والمغامرات ماذا سأضيف أنا لك غير ذلك!!

انفعل قائلا: إذا كان ما تقولينه حقيقة فأنت مجنونة.

قالت:

- لا تبالغ إلى هذا الحد،

لم يمتلك إجابة، أنهي المكالمة مرة أخرى وضع السماعة بدون رد على كلماتها الأخيرة، واعتقد أنها ستعاود الاتصال مرة أخرى لكنها لم تفعل.

جلس بجانب الهاتف نصف ساعة يفكر فيما تقوله وفيما يقوله عندما تعاود الاتصال، لكن ثقل جفنيه وغلبه النوم فأغمضهما واستسلم للنوم لفترة ثم انتفض على رنين الهاتف، نظر إلى الساعة وجدها الثالثة صباحا أجاب على الهاتف سمع صوت رامي يقول:

- مازلت في القاهرة؟ قلت إنك ستأتي اليوم!

قال وهو يقاوم النوم ويتثاءب:

- كان يوم طويل مرهق للغاية أحتاج إلى النوم سآتي غدا.

قال رامي:

- حسنا نحن في انتظارك لا تتأخر.

وضع السماعة ونظر إلى ملابسه التي لم يبدلها فتذكر ما حدث، لم يقدر على التفكير به أو تحليل ما قالته أو تخمين من تكون فقد حل الإرهاق عليه بشدة، دخل إلى غرفته وارتمى على سريره وسبح في بحر النوم العميق.

في اليوم التالي استيقظ متأخرا، صنع كوبا من الشاي وجلس في البلكونة التي تطل على شارع ضيق، يعج بالمارة والباعة المتجولين والمراهقين الذين يلعبون الكرة، يفكر ألا يسافر اليوم إلى رأس البر ، يجب أن ينهي بعض الأعمال.

في البداية يود أن يذهب إلى دار النشر ثم المرور بالجريدة لمتابعة مقاله الأخير الذي سبق ورفضه رئيس التحرير لشعوره بانحراف في تفكير مروان من الناحية الدينية رغم أنه لا يعرض أراءه الدينية التي يعاقب عليها المجتمع -وليس القانون- فالمقال يتحدث عن عالم الجريمة ويجب عدم الخلط بين المكتوب وشخصية الكاتب لكننا في مصر.

هذه أمور يمكن تأجيلها بضعة أيام فزيارته لدار النشر روتينية وغير ضرورية وزيارته لرئيس التحرير مثل عدمها، يعرف أن رئيس التحرير لا يصلي أبدا وعندما يتواجه معه

يطفح جهله على وجهه لكن البعض أقنعه أن مروان هرطيق وهو لن يقبل بنشر مقال لشخص مثله يتحدث في ثوابت الدين.

الحقيقة أنه يريد انتظار صاحبة الصوت الرقيق حدسه يخبره أنها ستتحدث مرة أخرى، عقله يلومه على إنهاء المحادثة، فالفضول في معرفة ما في جعبتها اشتعل عن آخره، الوقت الآن مناسب يجب أن يغتنم فرصة خلو البيت من أصحابه.

اتصل بعائلته واعتذر عن الحضور شعر بالحزن في صوت أمه ورغبة قوية في إلحاح أخيه وأبيه بالحضور حتى ولو ليوم واحد فوعدهم بوعد زائف حتى يكفوا عن الإلحاح، شعور غريب يتملكه أنه لن يستطع التحكم في أحداث الأيام القادمة ولا يعرف كيف ستسير بها الأمور.

لا يعرف متى ستتصل فاتبع حدسه الذي يخبره أنها غالبا ستتصل به ليلا، لديه وقت كاف ليناقش بعض الأمور الروتينية في دار النشر التي أصبحت تعتمد عليه اعتمادا كبيرا في دخلها، ثم يتجه إلى الجريدة في محاولة أخيرة منه لنشر مقاله الأخير.

تأنق بملابسه الفضفاضة كما يحب وأشعل سيجارة قبل أن يغادر، فخارج البيت هي جزء من شخصيته ويجب أن يلحق

السيجارة بأخرى قبل أن تنطفأ.

كان عقله بنصف تركيزه فقط، لم يستطع طرد صاحبة الصوت الرقيق وعرضها المغري من خياله، بمجرد وصوله إلى دار النشر ورؤيته بعض العاملات والكاتبات صار يبحث عنها فيهن يتخيل أنها ربما تكون هذه أو تلك.

يشرد عندما يتحدث إلى إحداهن يفكر هل هي أم لا، أحيانا يشيح بنظره بعيدا حتى يستمع إلى الصوت جيدا ويركز به ربما تكون هي صاحبة الصوت، لكنه في النهاية يصاب بخيبة أمل.

كرر البحث عندما ذهب إلى الجريدة قبل أن يتشاجر مع رئيس التحرير وبعد المشاجرة أيضا ولم يصل إلى نتيجة، وبدأ يفكر ماذا لو كان حديثها صحيحا وأن هناك جرائم غامضة أو مغامرة تود قصها عليه، هل هي طرف فيها، هل تورطت مع أحدهم!!

عاد إلى البيت مبكرا على غير عادته، أول ما نظر إليه عند دخوله إلى البيت كان الهاتف الذي بدى له كدمية مخيفة في فيلم رعب. هكذا رآه.. مخيفا.

بدل ملابسه وجلس لتناول شطيرة البيتزا التي اشتراها من المحل الرديء القريب من البيت والتي لا تتعدى كونها

قطعة عجين تحمل بعض الخضروات ولا تمت للبيتزا بصلة.

يتناول ما سماه البائع بيتزا وعيناه مازالت معلقتين على الهاتف، أنهى طعامه وأعد كوبا من الشاي وذهب به إلى غرفة المعيشة وعيناه أيضا على الهاتف لكن الوقت لم يحن بعد فجلس لمشاهدة فيلم يعرضه التلفاز.

لم يعطها موافقة بأنه سيستمع إليها لكنه يرجح أنها ستتصل في نفس الميعاد.

وبالفعل ارتفع رنين الهاتف في نفس الموعد فرفع السماعة فقالت:

- اعترف أنك كنت تنتظرني,

شعر بفخر لتوقعه الصحيح فقال: حقا لقد أثرتي فضولي.

قالت:

- حسنا، سأبدأ معك من البداية.

اعترض قائلا:

- لا بل من النهاية اذكري لي النتيجة ثم اسردي لي التفاصيل.

اعترضت قائلة:

- باستطاعتي أن أشرح لك الأمر في كلمتين ربما هذا يشبع فضولك لكني أحب التفاصيل، ربما صنعت مني بطلة لإحدى رواياتك يوما ما فلتتعرف على أدق التفاصيل لتصنع رواية متكاملة.

أحب الفكرة، الروايات الواقعية يحبها القراء ولا يستطيع أحدهم أن يتهم الكاتب بخيال واسع لا يمت للواقع بصلة، هذه فرصة لن تسنح له مرة أخرى، أن يضعه أحد في الكواليس فيدخل في عقل الشخصيات ويعرف دوافعهم وخططهم ونظرتهم لما فعلوا.

هذه رواية لن ترهق تفكيره في خلق شخصياتها وأحداثها وحبكتها ونهايتها فهي مكتملة الأركان ما عليه سوى كتابتها بطريقته المبدعة وإعادة ترتيب أحداثها إن احتاجت لذلك.

قبل بالأمر..

لن يستطيع كبح زمام فضوله أكثر من ذلك.

قال لها:

- حسنا من البداية,

قالت: ولكن لي شرط.

قال متهكما: شرط!

قالت: لا تتدخل في الأحداث.

قال:

- لا أفهم مقصدك؟

قالت:

- لا تبحث خلف ما أرويه لك.

ارتابه الشك وقال:

- ولماذا أبحث خلفه؟

قالت:

- لأنها ليست خيال كالذي تكتبه في رواياتك فربما تريد رؤية الشخصيات أو الأماكن التي صنعت بها الأحداث.

قال:

- ربما يكون من باب الفضول ليس أكثر.

قالت بحزم:

- لا. يجب عليك السيطرة على فضولك وهذا شرطي حتى ابدأ.

استسلم لشرطها وقال:

- حسنا لنبدأ الحكاية

***

في محافظة الفيوم تعيش أمل الفتاة ذات العشرين عاما مع أمها وهي امرأة متسلطة تهوى الأمر والنهي ولا تسمع غير صوتها هي فقط، الجميع يتجنبها ليتقي شرها فهي حادة الطباع.

فقدت السيطرة على أمل منذ ذلك الحين عندما تزوجت، تجزم أمل أن فقدان تلك السيطرة أصاب أمها بالاضطراب، عدم لجوء أمل إليها في كل كبيرة وصغيرة أزعجها كثيرا وزاد من سوء طباعها.

توفى والدها عندما كانت صغيرة وتحملت أمها عبء تربيتها بمفردها، عندما أصبحت شابة تقدم لخطبتها العديد من الرجال فهي جميلة تتمتع بعينين بنيتين صغيرتين مسحوبتين تشبهان حبة اللوز تضع الكحل أسفلهما وفوقهما كي تتسعان، صاحبة أنف مربع مميز وشعر طويل أسود كان دائما مربوطا بأمر من أمها، وقوام يميل إلى السمنة المحببة لدى بعض الرجال.

من بين كل هؤلاء المتقدمين لخطبتها اختارت أمير لكنها لم تفصح عن رغبتها به وزعمت أنه غير مناسب ولا تشعر

نحوه بمشاعر الحب فدفعت أمها للتشبث به دون أن تشعر فدائما ترى أمل لا تحسن الاختيار ولا تعرف مصلحتها فخططت لذلك ونالت ما أرادت دون الخوض في معارك كالعادة فهذه المرة لا تحتمل المخاطرة..

لم تفضح خطتها طوال فترة الخطبة كي تحافظ على خطيبها، فهي أحبته منذ النظرة الأولى كما أنه أحبها أيضا، أوهمت أمها طوال فترة الخطبة أنه ليس الرجل المناسب، كانت تشعر أن هذا الحب طوق النجاة لها، وبمجرد إتمام الزيجة تصبح حرة لكن ذلك لم يحدث سريعا.

بعد الزواج استمر الوضع على ما هو عليه بل انضم أمير إلى أمل، حزنت على زوجها الذي يشاركها ضعف الشخصية ومارست الأم عليهما تسلطها بكل جرأة إلا في شيء واحد أن تعيش معهما في بيت واحد، فقد هددت أمير قبل الزواج بفسخ الخطبة إذا وافق على هذا الأمر.

خمدت آمالها في الخروج من عباءة أمها.

كانت تنفذ كل ما تأمرها به في الأيام التي تذهب فيها إليها، تحاول مساعدتها في تخطي غضبها فهي ابنتها الوحيدة ولا يوجد أحد غيرها يستطيع تحملها.

الأمر ازداد سوءا عندما أنجبت طفلتها الأولى ليلى،

أصبحت الأم أكثر تسلطا تتدخل في كل شيء يخص الطفلة وتنهر أمل إذا تخلفت عما رسمته وخططته لتربية ليلى.

قابل أمير كل ذلك بصبر ورضا وكان يحث زوجته على تحمل والدتها ويكرر حديثه -الذي أصبح مملا- عن طاعة الوالدين ليداري ضعف شخصيته.

أصبح السيء اسوأ فقد وضعت أمل طفلتها الثانية نادية، وبختها أمها أنها وضعتها أنثى كأن بيدها الاختيار!

ظهرك محني بهاتين البنتين.

أين السند عند الكبر.

لا تكوني خائبة مثل أمك.

الصبي هو العوض الحقيقي في الحياة.

لم يجف دم النفاس بعد وهي تتلقى كل هذا التوبيخ، مستلقيه على السرير تنظر إليها بنظرات خرساء إلى أن صرخت بها:

- أتسمعينني؟

أجابت أمل بصوت واهن:

- نعم أسمعك

استجمعت شجاعتها وهي تقول:

- لكني لا أريد الحمل مرة أخرى لا أستطيع تحمل تربية ثلاثة أطفال,

اقتربت من السرير وهي تقول بغضب:

- أنا التي تربي ليس عليك سوى الحمل والولادة، هل ترين شخصيتك تلك تصلح لتربية أطفال!

لمعت الدموع في عينيها وأبت أن تسيل على وجنتيها، تود أن تصيح بها، من خلق تلك الشخصية الضعيفة البائسة سواها، كم حاولت التقرب إليها دون جدوى، حتى أنها حاولت الوقوف أمامها والصراخ في وجهها لكن لسانها لا يقدر أبدا ولن يقدر.

خرس فمها لم تقدر على التفوه بكلمة، لا صراخ لا عتاب لا شيء اكتفت بالدموع التي ترقرقت في عينيها وأدارت لها ظهرها في صمت.

تلك القشة التي قسمت ظهر البعير.

تحملت ثلاثة أشهر أخرى حتى تنهي دراستها الجامعية ثم مارست بعض من تسلط أمها على زوجها وخيرته بينها وبين رفضه الرحيل من الفيوم إلى أي محافظة أخرى يريدها.

كان يعمل مهندسا في شركة هندسية لها فروع عدة في أكثر من محافظة فأختار القاهرة لتكون المحطة الأخيرة التي لم ينتقل منها إلا عندما انتقل إلى الرفيق الأعلى.

تركت خطاب لأمها على الطاولة ولم يكن به سوى كلمات قليلة:

انتقل عمل أمير إلى القاهرة واضطررنا للسفر اليوم، أراك قريبا.

قرأت الأم الخطاب ثم مزقته بغضب عارم، كانت هناك أشياء تتم خلف ظهرها ولم تشعر بها، لا يتم نقل العمل من محافظة إلى محافظة أخرى بين ليلة وضحاها ولا تنتقل أسرة بأكملها بطفلتين لم يتعد عمر الكبيرة منهما ثلاث سنوات بهذه السهولة فجأة، لم يحتوي الخطاب على عنوان أو رقم هاتف، الأمر واضح لا يريدان التواصل معها، ينسحبان بهدوء من حياتها مع طفلتيهما إلى بعيد.

الأمر مدبر ومعد جيدا بينهما.

(٢)

مرت ستة أشهر هي الأجمل في حياة أمل.

الانطلاق والحرية والسعادة كانوا عنوان الستة أشهر وكلما حاول أمير التحدث إليها عن الذهاب إلى الفيوم ترفض رفضا قاطعا كما رفضت أن يعطي أحدا من أهله عنوانه في العاصمة خوفا من أن تحصل عليه أمها وتأتي إليها لتغرقها بوابل من الاتهامات والسباب وتعيد ممارسة تسلطها عليها.

لكن الحديث في هذا الأمر صار يتجدد يوميا.

- لا مفر من زيارتنا إلى الفيوم نحن أشبه بالهاربين من القانون أو الهاربين من الثأر.

هكذا أنهى أمير حواره معها رافضا كل أسبابها الواهية لتأجيل زيارتهم إلى الفيوم، لكنه وعدها ألا يسمح لأمها بإعادة أفعالها بالأمس، تفاعلت بكلماته وأعلنت موافقتها رغم أنه لم يخيرها فقد فاق صبره الحد المسموح وكان قد اتخذ القرار مسبقا قبل حواره معها.

شعرت أن الترقية التي نالها غيرت الكثير في شخصيته، منذ اليوم الأول لترقيته وهو يرى قلة التقدير في عيون مرؤوسيه، ذلك يشير بالخطر لابد أن يتداركه قبل أن يصبح مدير فاشل ويقف السلم الوظيفي إلى هذه الدرجة فقط،

لذلك قرر أن يكون حازما حاسما لا يتهاون مع المخطئ ولا يضع اعتبارات شخصية تؤثر على العمل.

كذلك مع أمها يكن لها كل الاحترام ويرحب بحضورها إلى بيته في القاهرة لكن كضيفة لمدة يومين على شرط ألا تتدخل في حياة أسرته.

هذا ما أتفق عليه مع أمل وأكد على تنفيذه.

***

انقبض قلبها كلما ابتعدت السيارة عن القاهرة واقتربت من الفيوم، أعدت نفسها لقذائف من التوبيخ وقلة الاحترام والأمّر من ذلك أعدت وجهها للّطم حتى بعد وعود أمير لها بالدفاع عنها.

توارت خلف أمير بينما فتحت أمها الباب وسددت نظرات غاضبة لهما لكن أمير نظر لها بثبات وقال بقوة:

- ألا تسمحين لنا بالدخول؟

أمسك بيد أمل وقال بصوت عال:

- أتخافين وأنا معك يا أمل هيا ادخلِ.

نظر إلى أمها بتحدٍ، ففهمت أن أمير الذي تراه الآن يختلف عن ذي قبل، قالت في محاولة أخيرة لصب غضبها عليهما:

- حقا يجب أن تخاف بعد ما فعلته.

أجاب بصرامة:

- لا يجرؤ أحد على إخافتها طالما أنا موجود على قيد الحياة.

ابتسمت أمل وهي ترى زوجها أخيرا كما أرادته.

ابتسمت وهي ترى تراجع أمها أمامه.

ابتسمت واكتفت بنظرة امتنان له.

لقد خرج من تحت سلطتها وسحب أمل معه بهدوء.

كان اللقاء يملأه التوتر، لم يخطط له أحد أن يكون على هذا النحو، أمل وأمها ظنا أنه سيكون معركة طاحنة تنتصر فيها الأم كعادتها، أمل أعدت نفسها لتقبل الإهانات التي منعها أمير والأم أعدت لها قائمة من الأوامر لم تستطع حتى التفوه بها، الجميع يجلسون فوق بركان كلمة واحدة صغيرة ستفجره، حتى ليلى شعرت بخوف وظلت في حضن أبيها لم تسلم على جدتها ولم يدفعها أحد من والديها لذلك، كذلك جدتها لم تقترب منها أو من أختها الرضيعة لكنها كانت تنظر إلى ليلى كثيرا ولم تكن أمل في حاجة لأن تقول لها كم هي تشبهها فقد لاحظت الشبه جيدا.

***

مرت السنوات في سعادة دائمة لا يعكر صفوها سوى الأيام القليلة التي تلتقي فيها أمها، لم تغير طباعها ظلت متسلطة لكن أمل كانت تضع أمير في مواجهتها دائما، كان بالحنكة الكافية لصدها دون خسائر.

الآن رحل.

توقف القلب عن النبض.

أغلقت العين وصعدت الروح.

هدأ الجسد وارتاح من الغيبوبة التي مكث به شهر في المشفى.

قال الطبيب بأسف:

-البقاء لله

ارتفعت الأصوات واختلطت، صوت البكاء مع صوت النحيب والصراخ والنواح

رحيل آخر في حياتها بعد أبيها لكنه أصعب بكثير.

ها هو قد رحل وتركها وحدها في مواجهة الحياة.

تركها مع فتاتين في عمر المراهقة تحتاجان إلى حزمه

وصرامته.

تركها في مواجهة أمها مرة أخرى.

المعزين يأتون ويذهبون على مر الأربعين يوما بعد الوفاة، منعت النساء من الصراخ واللطم بعد أن صرخت بهم أمل أن يصمتن تماما يكفي أن يملأ صوت القرآن أرجاء المنزل.

تجلس أمل بينهن لكنها لا ترى أحدا منهن تبكي بحرقة، تمر ذكرياتها الحلوة مع شريك حياتها كشريط سينمائي أمامها، فجأة تلتقي عينيها بعيني أمها ترمقها بنظرات حادة ووعيد، تنطلق الكلمات من عينيها بدون صوت.

ها نحن قد عدنا بمفردنا كما كنا، هل تذكرين كيف كانت حياتنا؟

اليوم هو الأخير في الأربعين يوما، وقفت على باب بيتها تودع المعزين ثم أغلقت الباب، سمحت للخادمة بالخلود إلى النوم، اطفأت الأنوار ثم ذهبت لتطمأن على ليلى ونادية، كل منهما في غرفتها تحاول التغلب على المشاعر السلبية التي تملؤها بطريقتها الخاصة.

نادية التي تبلغ من العمر السابعة عشر عاما كانت تتحدث عبر الهاتف مع إحدى صديقاتها، تحكي عن أبيها وتبكي، تصف حبه وحنانه وكم كانت متفاهمة معه وتتذكر كم من

أشياء وعدها أن يفعلاها معا ولم تمهله الحياة حتى ينفذ وعده.

طرقت أمل الباب ثم فتحته ووقفت قليلا بجوار نادية لكنها لم تشعر بوجودها، لم تستطع كبح زمام دموعها عند سماع حديثها عن والدها وانطلقت الدموع لتنتبه نادية لوجودها، أنهت المحادثة وحضنتها وانخرطا في البكاء، كل منهما تذكرت في ذات اللحظة ماذا لو لم يحدث ذلك، ماذا لو كانوا جميعا في كابوس مروع وبين لحظة والأخرى ينتهي.

حاولت أمل أن تتماسك وقالت:

- إذا أردنا أن نشعر بوجود أبيك معنا علينا أن نحقق كل ما أراده لكما أنت وأختك، ويجب أن تفعلي كل شيء أردت أن تفعليه معه ولا تتخلي عنها.

قالت نادية ولازالت تبكي:

- كيف أفعل أشياء خططنا أن نفعلها سويا سأتذكره في كل لحظة ولن أستطيع الاستمرار.

قالت أمل:

- لو فعلتها سيشعر بها ويسعد وستشعرين أنه بجوارك.

لم تنتظر الرد، قبلتها وقالت:

- تصبحين على خير.

خرجت وأغلقت الباب، شعرت بثقل على صدرها، الحزن يولد كبيرا ثم يصغر بمرور الوقت ستجف الدموع وتنزوي الذكريات وتفرض الحياة وجودها ويتنحى الأموات جانبا، لكن المسؤولية التي وقعت على كاهلها ولدت صغيرة عندما كان أمير بجوارها والآن هي تكبر بل تتضخم ويتضاعف حجمها عشرات المرات.

طرقت باب ليلى ثم فتحته رأتها تجلس في ضوء خافت ولا تفعل شيئا إطلاقا سوى الحملقة في سقف الغرفة، تقدمت بضع خطوات وجلست بجوارها وهي تمسح على شعرها وقالت:

- ليلى لا تجلسي هكذا افعلي مثلما تفعل نادية حاولي أن تفرغي كل مشاعرك بأي طريقة تريها مناسبة لك.

قالت ولازالت تحملق في السقف:

- لا أريد التحدث مع أحد ولا يريد أحد التحدث معي.

حاولت ضمها إلى صدرها لكنها أبت فقالت لها:

- كيف تقولين ذلك أنا أريد التحدث معك.

نظرت ليلى إليها أخيرا وقالت:

- حقا! ألن تكذبيني مثلما حدث من قبل.

تصنعت الثقة وقالت: لا لن أكذبك.

ابتسمت بسخرية وقالت:

- بلى، ستكذبيني.

قالت أمل في نفسها: «هذا الأمر ليس وقته أبدا، ولا يجب أن يعود الآن»

سحبت ليلى الغطاء لتعلن إنهاء الحديث، حاولت معها حتى لا تتكرر مأساتها مرة أخرى، الصمت غير مرحب به حاليا، دائما صمتها تصاحبه انتكاسة ليس وقتها الآن، هذا وقت الحزن .

احزن إلى آخر مدى.

وافرح إلى آخر مدى.

ابكِ إلى آخر مدى.

أعطِ لكل حدث وقته، لا تبقي في قلبك شيء لم تعطه.

انسحبت أمل في هدوء، لا داعي لمزيد من التفكير فيما تشعر ليلى به الآن وما يحدث داخل عقلها، غدا يظهر ما يخفيه اليوم.

دخلت أمل غرفتها وجدت أمها تحشر ملابسها حشرًا في الحقيبة، كل الملابس الصيفية والشتوية كأنها تعدها للهجرة، تنظر إلى الملابس ذات الألوان الصاخبة وترميها بعيدا وتحشر الملابس السوداء والقاتمة اللون فقط.

سألتها أمل:

- ماذا تفعلين؟

أجابت وهي لازالت تفرز الملابس حسب ألوانها:

- كما ترين

قالت وهي تلملم ملابسها المبعثرة: لماذا تعدين حقيبة ملابسي؟

توقفت عما تفعله ونظرت إليها قائلة: لأنكن ستأتين معي إلى الفيوم.

قالت:

- ولماذا لا تبقين أنت معنا؟

أجابت:

- لأنني قررت ذلك

خرجت من الغرفة بعد أن عبثت بها، لم تقصد ترتيب حقيبة

ملابسها بل أرادت توصيل أمرين لها:

الرحيل إلى الفيوم أمر لا رجعة فيه.

الملابس الملونة أصبحت ممنوعة منذ اليوم.

***

هنا قال مروان لصاحبة الصوت الرقيق:

- لا أستطيع تصديق أن هناك أحد بهذه الشخصية الضعيفة!

قالت:

- هناك مثلها الكثير، بل وأضعف منها أيضا.

قال:

- لماذا لا تصرخ في وجهها بما تريد ماذا يمنعها؟

قالت:

- ضعف الشخصية يعد مرض نفسي وله أسباب كثيرة ومن بينها سوء التربية كما حدث مع أمل.

سألها في خبث:

- هل تعرفينها جيدا؟

قالت:

- ماذا تفضل، أن أكون أعرفها جيدا أم لا؟

قال:

- أنا أفضل أن تكوني تعرفينها جيدا حتى تتمكني من سرد تفاصيل قصتها جيدا.

سخرت قائلة:

- وأنا أفضل استكمال الحكاية.

قال:

- حسنا أكملي.



***

استيقظت في اليوم التالي على صياح أمها في الخادمة أن تساعدها، الأثاث يتم تغطيته بالملاءات، النوافذ تغلق جيدا، المياه والكهرباء آخر شيء يتم غلقه، حركة غير عادية في المنزل، كأنه أمر عسكري ولابد من تنفيذه الآن، لم تتوقف أمها عن الكلام وهي تنجز ما تفعله:

- لا يصح أن تنقطع زيارات المعزين ونظل في المنزل بدون رجل.

ثم أخذت تنعي حظها:

- أرملة تأوي ابنتها الأرملة أيضا وابنتيها ويعشن جميعا بدون رجل وسند، أي حظ هذا الذي تخبأه لي الحياة!

عمرها الآن تعدى الستين عاما، صحتها لم تعد كالسابق أصابها الضغط ومرض السكري وصاحبها الكوليسترول العالي لكن استردادها للتسلط والتحكم في ابنتها وحفيداتها أضفى عليها نشاطا وحيوية.

علا صوتها وأصبح أقرب للصراخ وهي تحث الجميع على تبديل ملابسهن والاستعداد للسفر الآن وتشكر الخادمة على فترة عملها لديهم وتعطيها أجرة عملها لهذا الشهر ومكافأة نهاية الخدمة.

كانت الفتاتان مندهشتين مما يحدث ومن صمت أمهما، يعرفان أنها ليست صاحبة شخصية صارمة لكن لم يتوقعن أن تضعف لهذه الدرجة أمام جدتهما.

توترت ليلى قليلا ولاحظت أمل ذلك فتذكرت ما أكد عليه الطبيب النفسي منذ سنوات فاتجهت إليها فورا وحاولت تهوين الأمر وقالت:

- ليلى حبيبتي لا داعي للقلق جدتك ترى أن هذا في صالحنا.

نظرت إليها بغضب وقالت:

- وأنت ماذا ترين؟

كذبت قائلة:

- لقد اتفقنا بالأمس أنا وجدتك على ذلك، أنا أعلم كل شيء مسبقا.

نظرت إليها بشك لكن أمل لم تعطها فرصة للتفكير أكثر وأخذتها إلى غرفتها، أحضرت حقيبة كبيرة وبدأت ترص ملابس ليلى بها وهي تقول:

- الإجازة الصيفية هذه السنة سوف نقضيها في الفيوم نحتاج جميعا إلى تغيير حقيقي سوف نزور المعالم السياحية كلها، هل تعلمين أنني لم أزر سوى وادي الريان فقط بالرغم أن الفيوم بها العديد من الأماكن السياحية الجميلة.

اقتحمت أمها الغرفة وقالت:

- هذه ليست رحلة وأنتن لستن أحرار كي تخرجن كما يحلو لكن.

نظرت إلى أمل وقالت بلهجة آمرة:

- خاصة أنت فقد اصبحت أرملة هل تدركين معني هذه الكلمة.

انفعلت ليلى قائلة:

- كيف أننا لسنا أحرار، وبأي حق تمنع أمي من ممارسة حياتها الطبيعية.

قالت أمل: ليلى يكفي هذا.

قالت الجدة: الحياة هنا انتهت.

أشارت إلى ليلى وقالت لها:

- إذا أردت أن تكملين دراستك عليك بالطاعة.

ثم أشارت إلى أمل قائلة:

- أما أنت فأفكر في أمر عملك ولم أقرر بعد.

خرجت من الغرفة، جلست أمل تنظر إلى الأرض خجلا من ابنتها التي سألتها مندهشة:

- هل ستتركيها تتحكم بنا هكذا؟

رفعت رأسها قليلا وقالت:

- لا تنظري إلى الأمر هكذا لكن فكري بالعقل والمنطق.

قالت ليلى:

- العقل يقول إنك المسؤولة عنا بعد أبي وليس هي.

ارتبكت أمل وحولت الدفة إلى نقطة أخرى ونظرت إليها قائلة:

- لا أقصد ذلك بل أقصد أننا لا يجب أن نعيش بمفردنا لابد أن نعود إلى بيت العائلة كما أن تحركات المرأة الأرملة لابد أن تكون بحساب، هذا حال مجتمعنا.

هدأت حدة ليلى قليلا وقالت:

- وماذا عن تحكمها في استكمال تعليمي!

ابتسمت تخفي ضعفها وقالت:

- لا يستطيع أحد أن يمنعك من استكمال تعليمك هي فقط تريد أن تشعركما أنها مكان أبيكما، تفكيرها قديم بعض الشيء تعتقد أنها بهذه الطريقة تحافظ عليكما.

هزت رأسها متظاهرة بالاقتناع بهذا التبرير وأخذت ترتب أغراضها مع أمل لكنها لم تستطع أن تشاركها حماسها الزائف.

أما نادية رغم أنها الأصغر سنا لكنها الأنضج قرأت الموقف قراءة صحيحة وعلمت أن أمها لا حول لها ولا قوة وأن جدتها هي السجان منذ الآن فذهبت إلى غرفتها تعد أغراضها في هدوء.

نفذن جميعا الأوامر، أعددن كل احتياجاتهن وتركن المنزل

الذي ضم أحلى سنين عمرهن، ركبن سيارة الأجرة التي استأجرتها الجدة لتوصلهن حتى باب المنزل في الفيوم، التزمن الصمت جميعا، الجدة تجلس بجوار السائق وأمل تجلس على المقعد الخلفي بجوار ابنتيها اللتين أسندت كل منهما رأسها على النافذة تبكي، تدرك مشاعرهن جيدا فقد اجتاحتها هذه المشاعر سابقا عندما ألح عليها أمير في العودة إلى الفيوم، شعرت حينها أنها كانت عصفور حر سعيد قبل أن يحبس في قفص ويمنع من الطيران، تماما كما تشعر ابنتيها الآن.

توقفت السيارة أمام البناية في الفيوم وبدأ السائق في إنزال حقائبهن، نزلن من السيارة وكل منهن حملت حقيبتها ودخلن البناية وقفت أمل في الطابق الأول وأخذت تبحث عن مفتاح في حقيبتها وقفن جميعا وسألتها أمها:

- عما تبحثين؟

أخرجت المفتاح من حقيبتها وقالت:

- عن هذا؟

نظرت إليه وقالت: معي مفتاحي

تلعثمت أمل وهي تقول: هذا مفتاح بيت خالتي رحمها الله

تعلم جيدا ما ستعانيه ابنتيها، فقد عانت منه عندما رحل أبوها وتركها وحيدة مع أمها تارة يتحكم بها العم وتارة يتحكم بها الخال وفي أوقات كثيرة تتحكم بها أمها، رأت أن تخفف من حدة المشكلات التي في انتظارها بأن تستقل بهن في بيت منفصل حتى لو كان في نفس البناية، لا تريد المكوث في البيت الذي كانت ترتعب وهي فيه، الشاهد على كوابيسها المزعجة، الشاهد على ضعفها وانكسارها وكأنه سيفتن عنها لابنتيها سيفضحها ويكشف أمرها.

تذكرت عندما أعطتها خالتها المفتاح في أيامها الأخيرة وقالت لها أنها تهديها هذا البيت فهي لم يقدر لها أن تكون أم وقد أحبتها كثيرا كما لو كانت ابنتها.

قالت أمها:

- ماذا تعنين بذلك؟

ارتعشت يدها وهي تدير المفتاح في الباب لتفتحه وقالت:

- سنعيش هنا أنا والبنتان.

دخلت البنتان على الفور إلى الداخل، صدمت أمها من هذا التصرف ولم تقل شيء، لكن نظراتها أوحت بأنه لا مفر منها، وكأنها تقول أنتن جميعا تحت طوعي الآن، تركتهن وصعدت إلى الطابق الأعلى حيث بيتها.

البيت إلى حد كبير يشبه بيت أمها، فقد اختارت الأختان نفس الأثاث ووضعتاه في نفس الأماكن في البيت، الصالون الذي صنع منذ خمسة وعشرين عاما والذي صُنع منه اثنان بنفس التصميم والألوان، الطاولة الخشبية المستطيلة والكراسي المرصوصة صنع منها اثنان أيضا، حتى الستائر كانت متشابهة، كان الأثاث ذا ذوق رفيع لكنه أصبح قديما.

عاشت أمل مع زوجها بظروف مادية جيدة جدا، لم تكن بحاجة إلى المال لكنها أرادت العمل لربما تتغير شخصيتها وتتقوى لكن العمل أضعفها أكثر.

يصعب عليها اتخاذ القرارات،يصعب عليها رد التوبيخ، يصعب عليها تحمل المسؤوليات، كشف لها العمل كل جوانب شخصيتها السلبية لكنها ظلت متمسكة به.

بقيت في دار النشر فقط بسبب علاقات زوجها المتشعبة، فلم تكن تمتلك مميزات وأداؤها كان أقل من الطبيعي.

عند ذهابها إلى الفيوم لم تجد عمل كهذا ففضلت ألا تعمل.

***

رفع مروان حاجبيه مندهشا وقال:

- دار نشر! ما اسمها؟

قالت:

- لا يهم اسمها

قال:

- هل هذه صدفة أن تحكي لكاتب عن حكاية موظفة تعمل في دار نشر؟

قالت بثقة:

- ربما نعم وربما لا.

انفعل قائلا:

- نعم أم لا؟

انفعلت بدورها قائلة: هل أكمل أم لا؟

صمت فأخذت نفس عميق ثم استطردت.

***

انقضت إجازة الصيف ولم تنفذ أمل أي وعد مما وعدته لابنتيها عن الرحلات وزيارة الأماكن السياحية، ولم تسألها أيهما عن هذا الوعد، فقد انكشف كل شيء وشهور الإجازة أوضحت مدى ضعف أمهن كما وضحت مدى قوة جدتهن، هي أيضا لم تعتذر عن تنفيذ وعدها لأن الاعتذار لابد أن

يصحبه وعد آخر وهو ما لن تستطيع الوفاء به أيضا، فهي لن تتغير وأمها كذلك.

تم نقل نادية إلى نفس المدرسة التي كانت تدرس بها أمل في المرحلة الثانوية أما ليلى فقد ساعدها القدر فظلت تدرس في جامعة القاهرة وحاولت أمل أن تتخذ منها حجة كي تبقى في القاهرة لكن إصرار أمها على الانتقال والعيش معها وقف أمامها كحائط صلد وحكمت على ليلى الذهاب إلى الجامعة في المحاضرات الهامة فقط والعودة في نفس اليوم.

ورغم ذلك فقد حصلت ليلى على امتيازات كثيرة لم تحصل عليها أمل رغم فارق العمر بينهما، فهي تسافر ثلاث مرات أسبوعيا تتمنى أمل يوما واحدا منهم.

بدأت الخلافات تدب بين الجدة وليلى فقد ربت أمل ابنتيها عكس ما ربتها أمها تماما فحظيا بشخصية مستقلة قوية خاصة ليلى، لكنها لو كانت تعلم أنها ستعود يوما ما لبراثن القهر لكانت ربتهن مثلما تربت على الطاعة وقول كلمة نعم فقط.

الفجوة تتسع يوما بعد يوم بين أمل وليلى من جهة والجدة من الجهة الأخرى واتخذت نادية موقفا محايدا تماما مما جعل جدتها لا تنشغل بها، بدأت تلهث خلف ليلى في كل

الأماكن وتراقب جميع أفعالها، بل وصل بها الأمر إلى التخفي وتتبعها ومراقبتها في كليتها.

لم تحاول أمل منع أمها من تصرفاتها رغم اعتراضها عليها أو بالأحرى هي لا تستطيع لكنها كانت تبرر ضعفها بأن هناك جزء منها راضي عن هذا الفعل رغم بشاعته كي تطمئن على ابنتها التي تدرس في محافظة أخرى والتي تتعرض لضغوط قوية من جدتها وهذا لا يتناسب مع حالتها النفسية الهشة، ما يهمها حقا ألا تكتشف ليلى الأمر.

عندما تحاول أمل التعبير عن رأيها في شيء أو عند محاولة من ليلى لرفض شيء يكون اليوم التالي عقابا لأمل بتتبع ليلى، العقاب ليس في التتبع ذاته فقليلا ما كانت تتبع ليلى فعلا وكثيرا ما أوهمت أمل أنها تسافر إلى القاهرة خلفها ثم تخرج إلى أي مكان، العقاب كان في نتيجة التتبع من توبيخ ولوم واتهام بعدم إجادة تربية ابنتها تربية صحيحة، تمطرها بقذائفها الحادة,

ليلى تضحك بصوت عالٍ، لم تحضر سوى محاضرة واحدة، تتحدث كثيرا مع الشباب,

تنتظر أمل إلى أن تفرغ كل ما في جوفها ولا تعقب على ما تقول ثم تتركها وتذهب، في بادئ الأمر كانت تقف أمامها حزينة والدموع تملأ عينيها ثم اعتادت الأمر فتسمع في

صمت وتذهب في صمت.

مالم تعرفه أمل أن ليلى كانت في حالة عشق مع زميل لها، هو الوحيد الذي يبقيها صلبة لذلك عندما تتشاجر مع جدتها لا تدع الأمر يصل إلى الحرمان من الذهاب إلى الكلية.

كلما عرفته أكثر كلما أدركت أنه يشبه أبيها في كثير من الصفات مما زاد من تعلقها به، تعاهدا على الزواج بعد التخرج من الكلية واتفقا على إقامة مشروع بدلا من الوظائف الروتينية.

روت له كل شيء عن حياتها، موت أبيها وضعف أمها وجبروت جدتها، وعدها أن ينتشلها من كل ذلك وأن يعود بها إلى القاهرة.

كانت صفاته كاسمه فارس فقد سرب إليها بصيص من الأمل. تتناول الإفطار معه في الأيام التي تذهب فيها إلى الجامعة والغداء أحيانا، يحضران المحاضرات وأخيرا يوصلها إلى السيارة التي تعود بها إلى الفيوم.

لكن في يوم ما أوصلها شخص آخر، وذلك اليوم كان الحد الفاصل في علاقتهما.

(٣)

ذات يوم من الايام تتبعت الجدة ليلى، رأتها مع فارس تضحك وتلامس يده أثناء خروجهما من بوابة الكلية برفقة بعض زملائهما.

بخطوات سريعة وصلت إليهم وصرخت في وجه ليلى قائلة:

- هل نرسلك إلى الكلية لتتعلمي أم لتجلبي لنا الفضائح؟

تعجبت من رؤيتها أمامها في الجامعة فجأة فأخرست الصدمة صوتها، واستطردت الجدة بصوت عال جمع الكثير من الطلاب حولهم قائلة لفارس:

- لا تتحدث إليها مرة أخرى، أنا جدتها والمسؤولة عنها وأحذرك وإلا أبلغت إدارة الكلية.

غلت الدماء في جسد ليلى شعرت أنها إن لم تصرخ بوجهها ربما تصاب بسكتة قلبية، فصرخت بها:

- كفى كفى، من أنت حتى تتحكمي في حياتي وفي أصدقائي، ألا يكفي الجحيم الذي نعيش فيه بسببك أنت مريضة وتصبي لعنة مرضك على كل من حولك.

صفعتها جدتها صفعة قوية، انتفض على إثرها فارس وهو

ينهرها وينعتها بالقسوة والفشل في التعامل مع حفيدتها، توقع أنها امرأة عجوز ستخجل مما فعلت أمام الناس فتطأطأ رأسها وتبتعد سريعا.

لكنه فوجئ بها تعيد عليه التحذير:

- إن اقتربت منها ثانية لا تلوم إلا نفسك.

جذبتها بقوة وسارت معها ليلى دون أن تشعر كأنها في عالم آخر أركبتها سيارة الأجرة التي أوصلتها إلى القاهرة وسط ذهول من الجميع، انطلقت السيارة وأخذت جدتها تصب السباب في آذانها وتهدد وتتوعد وتنهي عن أمور وتسمح بأمور أخرى، تتبادل ليلى النظرات في المرآة مع السائق الذي أبدى تعاطفه معها، عيناه اللتين بدا فيهما الحنان هما السبب الوحيد الذي جعلها تصمت.

جاءت طرقات الجدة على باب البيت بقوة، وما أن فتحت أمل حتى دفعت الجدة ليلى بقوة إلى الداخل.

صاحت ليلى:

- لا تدفعيني هكذا ليس لك حكم عليّ.

كانت أمل راضية بطريقة ما عما تقوله ليلى فقد طفح الكيل بأفعال أمها، لكنها تظاهرت بالضيق وقالت بلين:

- ليلى هذا عيب.

صرخت فيها الجدة قائلة:

- هذا ما استطعتِ قوله!!

صرخت ليلى مجددا:

- أنتِ من وضعتِ نفسك في هذا الموقف المحرج ولولا أنك جدتي لكنت رددت عليك صفعتك لي أمام زملائي.

شهقت أمل واضعة يدها على فمها وقالت لأمها:

- هل صفعتها على وجهها أمام زملائها؟!

صرخت بدورها قائلة:

- وماذا كنت تريدين مني أن أفعل وهي تصرخ في وجهي أمامهم.

قالت ليلى:

- هذا أقل شيء أفعله عندما أكتشف أنك تراقبيني، لقد أحرجتني أمام زملائي، هل أنا طفلة كي تراقبيني!

قالت الجدة:

- هل هذا ما يؤذيكِ حقا، أنني صفعتك أمام زملائك أم أنني اكتشفت أخلاقك الفاسدة والشاب الذي تتحدثين إليه

وتضحكين وتلامسين يده دون خجل.

خرجت نادية من غرفتها رغم أنها لا تحب التدخل في خلافات جدتها الدائمة مع ليلى لكنها قائلة:

- اهدئن جميعا يمكننا معالجة الأمر بهدوء.

صرخت بها ليلى:

- أنت جبانة لا تقدرين على مواجهة القهر الذي نعيش فيه فتخفضي له رأسك، أنا لست مثلك.

تعلم نادية أن كل كلمة تقولها ليلى صحيحة فهي ربما تكون أنضج من أختها الكبرى لكنها ليس في شجاعتها، دائما تخفض رأسها حتى تعبر الموجة خاصة إذا كانت موجة ساخنة من موجات جدتها لكنها لا تستطيع رفع رأسها مرة أخرى ولا حتى التفوه بكلمة واحدة، حتى عندما حاولت إبداء عاطفة إيجابية نحو جدتها فشلت أيضا، لم تستطع إظهار عكس ما تخفي، شعور اعتصر روحها ففضلت الخضوع بحيادية.

لم تستطع الرد فقد أفحمتها اتهامات ليلى.

قالت الجدة:

- نادية أفضل منك مئة مرة أنت عديمة التربية.

قالت ليلى:

- أنا لست عديمة التربية ولا أخلاقي فاسدة كما تدعين، أنا وفارس نحب بعضنا ومتفقين على الزواج,

قالت لها بتهكم: وأنا لن أوافق على تلك الزيجة.

قالت ليلى بتحدٍ وانفعال:

- من طلب رأيك

انفعلت أكثر وهي تتجه إلى غرفتها قائلة:

- لم أعد صغيرة سوف أنهي دراستي قريبا وسأتزوج فارس وليس لك حكم عليّ أتفهمين؟

صفقت الباب خلفها بقوة بينما نظرت الجدة إلى أمل بغضب لعدم تدخلها وحسم الموقف لصالحها وتركتها بدورها وخرجت وصفقت الباب خلفها بقوة أيضا.

كانت ليلة عصيبة على الجميع، تتنقل أمل بين أمها وليلى تحاول تهدأتهما لكن الاتهامات توالت فوق رأسها، صعدت إلى الطابق الأعلى حيث تسكن أمها وطرقت بابها معتذرة لها منتظرة التوبيخ واللوم كي تعود إلى بيتها فهي تعلم أنها لن تسمح لها بالمغادرة حتى تنتهي من اتهاماتها المكررة بأنها أم فاشلة وتود لو تقدر أن تسألها مرة واحدة ما السبب أنها

أم فاشلة من وجهة نظرها، تريدها أن تبحث عن السبب لعلها تتوقف عن اتهاماتها يوما ما.

هبطت إلى الأسفل وطرقت باب ليلى ودخلت لتتلقى اتهاماتها وهي أيضا ليس بها جديد تراها دائما الأم ضعيفة الشخصية لا تملك قرارها أو قرار أسرتها.

هي السبب في كل معاناتهن جميعا.

تحملت أمل الاتهامات دون رد رغم أن رأي ابنتها بها جرحها بشدة، الأهم عندها في تلك اللحظة ألا تفوت الاحتفال بالشعور الرائع الذي شعرت به في تلك الليلة المظلمة.

ليلى كبرت، أصبحت شابة ناضجة، تحب وترغب بالزواج، تخطط لمستقبلها.

جلستا على السرير، ليلى تبكي مرارة ما حدث، كيف تصفع وهي في هذا العمر، تصفع في الشارع أمام حبيبها وزملائها والمارة.

ابتسمت أمل وهي تمسح دموع ليلى وقالت:

- من زميلك هذا الذي صُفعتي بسببه؟

ارتبكت قليلا وقالت:

- فارس زميلي في الكلية.

سألتها:

- هل تحبينه؟

أجابت بخجل:

- نعم وهو أيضا يحبني.

قالت أمل:

- لماذا لم تحك لي عنه؟

قالت:

- لأن ما ننوي فعله لن تستطيعي تقبله بسهولة

قالت أمل:

- لا أفهم قصدك

قالت ليلى:

- اتفقنا على الزواج والإقامة في القاهرة وجدتي لن توافق وأنت بالطبع لن توافقي أيضا.

استطردت بتهكم: أم أنك تستطيعين مخالفة رأيها!

تلاشت ستائر الخجل نهائيا وأصبحت تعيد الاتهامات مصاحبة بالسخرية دون الشعور بالذنب، فعيناها تنظرا إليها

بتحد صريح أربكها.

حبست أمل دموعها ولم تجد ما تقوله سوى:

- تصبحين على خير،

اهتزت ليلى لدموع والدتها التي تأبى النزول، مازالت تحافظ على كبريائها، تحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من صورتها أمام أبنتها، لكن ليلى لم تستوقفها أو تحاول الاعتذار، فقد توقفت عن لملمة جراح الآخرين بينما هي تنزف.

لم تكن هذه الصورة التي في خيال أمل لتلك اللحظة منذ أن ولدت ليلى، كانت تود أن تحكي لها عن حبها الأول والفرحة تملأ عينيها وليست الدموع، تتسع عيناها وتلمع وهي تحكي عن حبيبها، يتشبع وجهها بالحمرة وهي تحكي عن مشاعرها وإحساسها به، ثم يبدأ الحديث عن ثوب الزفاف وليلة الزفاف وغيرها من الأمور التي تحلم بها كل أم.

خرجت من غرفتها قبل أن تصف لها كم هي سعيدة أن ابنتها تعيش لحظات الحب الأولى في حياتها، تمنت أن ترى على وجهها انعكاس هذا الحب لكن وجهها لم يستطع أن يعكس فرحتها.

وجهها كان جامدًا كلوح من الثلج.

مرت أمام غرفة نادية سمعت صوت بكائها عاليا، ليلة طويلة لن تتحمل فيها المزيد لكنها طرقت الباب ودخلت، فنادية الوحيدة التي لا تتهمها بشيء حتى وإن كان رأيها مثل رأي ليلى، جلست بجوارها على الأريكة الموضوعة أسفل النافذة حيث كانت تجلس تبكي وتنظر إلى السماء كعادتها عندما تضيق بها الحياة.

مسحت أمل دموع نادية وهي تقول:

- صحيح أنك الأصغر لكنك الأعقل، والدك كان دائما يقول عنك هكذا وهذا رأيي أنا أيضا حتى جدتك التي لا يعجبها أحدا رأيها مثل رأينا,

لم تتوقف نادية عن البكاء وقالت:

- الأعقل لأني الأكثر جبنا كما قالت ليلى,

قالت أمل:

- لا يا نادية أنا أحدثك بصدق أنت فعلا عاقلة وناضجة أكثر من ليلى، حتى أنني إذا شعرت أن نهايتي اقتربت أوصيتك أنت أن تراعي وتهتمي بأختك وليس العكس.

أخذت نادية نفسا عميقا، نزل الكلام بالسكينة على قلبها، لكنها شعرت أنها في حاجة للدفاع عن نفسها، قالت:

- أنا لست ضعيفة يا أمي وأيضا لست سوية، إذا كنت تهتمين بليلى لأن يوما ما طبيب شخص حالتها وكتب لها دواء فاعرضيني على طبيب وسترين بنفسك كيف يشخص حالتي،

احتارت أمل، أتسألها عن حالها أم تنفي عن نفسها اتهام بالاهتمام أكثر بليلى، لقد سئمت كل من في هذا البيت، لا أحد يرى أنها تفعل كل ما في وسعها لأجلهن جميعا وإذا أحتاج أحد أن يذهب إلى الطبيب فهي أكثرهن احتياجا له، قالت لها:

- جدتك أيضا تؤرقك؟

أجابت:

- ليس بالضبط هي فقط كشفت لي نقاط ضعفي التي تفوقت على نقاط قوتي، كنت أظن نفسي قادرة على أشياء كثيرة وجدت أنني أيضا هشة.

قالت أمل:

- لم تختبرك الحياة بعد مازلت صغيرة وإن كانت جدتك أول اختبار رسبت به فلن يكون آخر اختبار مازال أمامك الكثير، أما ما قلته عن نفسك لا يعني أنك مريضة مثل ليلى بل أنت أقوى منها فتتحملي الضغط دون أن تنهاري.

وقفت لتعود إلى غرفتها فاستوقفتها نادية تسألها في جدية:

- وهل ليلى تنهار؟

قالت أمل في يقين:

- ليلى انهارت بالفعل.

خرجت وأغلقت الباب خلفها وعادت نادية تنظر إلى السماء مرة أخرى، تفكر فيما قالته لأمها لقد استطاعت وصف ما بداخلها بدقة لم تكن تتخيلها.

عندما التحقت بالصف الأول الثانوي طلبت منها معلمة اللغة العربية أن تكتب في مجلة المدرسة الأسبوعية قصة أو مقال فهي تمتلك مفردات لغوية وجمل تعبيرية جيدة، وافقت على طلبها لكنها صارحتها أنها لا تملك أفكارا هي لا تقرأ كتبا ولم تشغلها قضية معينة تود الكتابة بها، رأتها المعلمة صفحة بيضاء فصبت بها كل الأفكار التي تؤمن بها عن حرية المرأة والدفاع عن حقوقها.

اختارت لها بعض القضايا التي تناسب عمرها وبدأت نادية تقرأ وتتحمس لهذه الآراء، ثم بدأت تتطور وتنتقي كتبا وقضايا جديدة عن المرأة ولم تنقطع عن القراءة لمدة

عامين، وبدأت تختار مثلها الأعلى من الكاتبات اللواتي تتمتعن بشخصيات قوية وجريئة مثل الدكتورة نوال السعداوي واقتنت كتابها الذي أثار ضجة كبيرة «المرأة والجنس».

استاء الكثيرون من قراء هذا الكتاب ومدحه آخرون وكانت هي واحدة ممن مدحوا هذا الكتاب.

عندما انتقلت إلى الفيوم وجدت أنها فرصة لن تتكرر أن تواجه القمع والقهر الذي تتعرض له المرأة خاصة وإن كانت هي أحد الذين يمارس ضدهم هذا القمع وحان الوقت الذي تطبق فيه ما تعلمته وتحوله من النظري إلى العملي.

والنتيجة أنها رسبت ولن تستطيع أن تضحك على نفسها كما حاولت أن تضحك عليها أمل وتدعي بأن هذا ليس أول وآخر اختبار، ما لم تعلمه أمل أن هذا هو أهم اختبار.

هي لا تعلم أن ابنتها تكتب مقالات صحفية في المجلة الأسبوعية للمدرسة وتتمنى أن تصبح كاتبة ذات آراء قوية جريئة حتى ولو كانت صادمة للمجتمع، وكيف تعلم وهي لم تتحدث معها يوما عن هواياتها أو طموحاتها في الحياة.

لذلك رسوبها في هذا الاختبار نسخ منها إنسان آخر لا تعرف عنه شيء، تذهب إلى المدرسة لتجلس في الصف

الأخير في زاوية لا يراها المعلمون والمعلمات، لا تريد أن يشعر أحد بوجودها وكأنها ليست موجودة في الحياة، فإن سألها أحدهم عن واجباتها المنزلية لن يجد إجابة وإن سألها أحدهم سؤالا في المنهج الدراسي أيضا لن يجد إجابة، لذلك هي تفضل أن تكون موجودة وليست موجودة في ذات الوقت، هي تريد التخفي بعيدا عنهم وعن زميلاتها وتسرح بخيالها في اللاشيء.

***

اشترطت الجدة ألا تذهب ليلى مرة أخرى إلى الكلية إلا لحضور الامتحانات فقط، ثارت ليلى وأعادت عليها أنها ليس لها ولاية عليها، هددتها الجدة بسحب أوراقها من الكلية وعدم استكمال دراستها.

وهل لها الحق في ذلك!

ليس لها الحق فقد أصبحت أمها المسؤولة عنها وهي الوحيدة التي لها الحق في منعها من استكمال دراستها.

لكن هل تستطيع أمها أن تقول لا!

رضخت. استعملت طريقة نادية إلى أن تنهي عامها الدراسي ويفي فارس بوعده، لن تستطيع منذ اليوم النظر بجرأة في عين نادية لن تتهمها بالجبن والاستسلام للقهر، ها

هي أصبحت مثلها.

ذات يوم فاجأت الجدة الجميع بملئ دولاب الغرفة الفارغة بملابسها، قررت أن تعيش معهن في نفس البيت بعد أن كانت تسكن في بيتها بالطابق الأعلى.

البيت صار جحيما، أصبح الهاتف مراقبا وخروج ليلى من البيت ممنوعا ووضعها الحالي يضغط عليها بشكل مباشر وهذا ما حذر منه طبيبها النفسي من قبل، حيث لم يهدأ أي من الطرفين سواء الجدة أو ليلى، صحيح أن ليلى خضعت لما أرادته جدتها خارج البيت لكن داخل البيت لم تستطع فقد حاولت وفشلت، يتعاملان كالأطفال ويتشاجران لأتفه الأسباب، تتعمد جدتها توبيخها ليلا ونهارا تتهمها دائما بأشياء ليست فيها وتعايرها بالعيوب التي فيها وليلى لا تستطيع الصمت فترد على كل كلمة بمثيلتها.

تمتع الجميع بالخصوصية ماعدا ليلى، غرفتها مستباحة، أغراضها مستباحة، حتى جسدها أصبح مستباح إذا لم تحكم باب غرفتها جيدا بالمفتاح، فيرتعش جسدها العاري وتلتقط يدها أي شيء تتستر به عندما تجد جدتها فجأة أمامها، تقتحم كل ما يخصها، باتت زياراتها المفاجئة المقبضة أشبه باقتحام شرطة الآداب لبيت من بيوت الدعارة.

وجودهن جميعا في بيت واحد حول حياتهن إلى جحيم

حقا.

***

اليوم هو ميعاد أداء ليلى للامتحان الأول في الفصل الدراسي الثاني من العام الدراسي، ذهبت إلى الكلية مستعدة تماما لأداء الامتحان واجتيازه بتفوق، لم تدع غضبها يفقدها هذا الخيط الذي يوصلها إلى الملاذ الآمن بعيدا عن الحياة البائسة التي تحياها.

بحثت كثيرا عن فارس إلى أن وجدته في مكان لم تتوقع أن يكون به، شعرت لثوان أنه يقصد التواجد في مكان بعيد، فلو كان يفتقدها مثلما تفتقده لانتظرها في مكانهما المعتاد، حاولت أن تكذب إحساسها وسلمت عليه بحرارة وبابتسامة عريضة قائلة:

- افتقدك كثيرا

أجاب بفتور:

- أنا أيضا.

لن تستطيع تكذيب إحساسها هذه المرة, صوته خالي من المشاعر، عيناه خاليتان من اللهفة، وملامحه خالية من الاشتياق.

أرادت التأكد مما تشعر به فقالت وهي تتلفت يمينا ويسارا خشية أن تجد جدتها أمامها:

- لن أستطيع الصمود أكثر من ذلك يا فارس، أنا أنهار حقا لن أستطيع الصبر عاما آخر لابد أن نتزوج بعد الامتحانات.

قال فارس:

- للأسف لن أستطيع لن يوافق أبي مازلنا ندرس ولم نتخرج من الجامعة بعد.

حمل صوتها نبرة رجاء وهي تقول:

- يمكننا أن نتمم الخطبة ثم يكون الزواج بعد التخرج.

صمت فأدركت أنه لا مفر من سماع ما يفطر قلبها ويدميه قالت:

- ماذا بك أراك غير متحمس لما أقول.

قال:

- أنا بالفعل فكرت بما تقولينه لكن عندما اقترحت الأمر على أبي رفض الموضوع كله.

توترت وهي تسأله:

- لماذا؟

قال:

- لا يرى خير في الأمر فجدتك تتحكم بكل شيء كأن والدتك ليس لها وجود وستعرقل كل ما نريده.

تكاد تتوسل إليه وهي تقول:

- ألم نتفق أننا سنفعل كل ما نريده حتى وإن لم توافق

قال:

- هذه سذاجة منا لا تسير الأمور هكذا.

في محاولة أخيرة وبشفاه مرتعشة قالت:

- ما رأيك أن نحاول معها ربما خيبت ظنونا ووافقت؟

قال:

- لا أعتقد ذلك.

حاولت بث الأمل به قائلة:

- أبي وأمي تزوجا وذهبا بعيدا وعاشا حياة سعيدة.

قال: ومن يضمن لي أن هذا السيناريو سينجح معنا.

سألته بقلب يرتجف:

- ماذا إذن؟

لم يقدر على أن يقول ما قرره وما أقنعه به أبوه بالأمس حيث قال:

مازلت صغير لم تتخرج بعد، غدا تلتقي بمن تناسبك وتليق بك تفتخر بها وبأهلها، هذه فتاة تعيش في بيت كله ضغوط وقهر تتحكم بها جدتها وأمها على قيد الحياة، لقد أصبحت هشة وحزينة وبالتأكيد هي معقدة نفسيا، ما رأته وعانته في حياتها حتما يؤثر عليها وغدا سيؤثر عليك.

بدأ الطلاب في الدخول إلى القاعات لأداء الامتحان أستغل الفرصة قائلا:

- يجب علينا الدخول الآن، نتحدث فيما بعد.

تركها مذهولة ورحل.

رحل بعيدا.

لن يعود.

انفض المكان حولها ذهب الطلاب والمراقبون إلى لجان الامتحانات، بدا الطابق كأنه بيت أشباح يتردد فيه صدى صوت المراقب وهو يدعوها إلى الذهاب إلى لجنتها لتأدية الامتحان بينما هي لا تراه ولا يتردد صدى صوت في أذنها سوى صوت فارس الذي كان يهرب من الحديث معها، نظرت

إلى المراقب بعد أن علا صوته وهو يحذرها من التأخر عن أداء الامتحان نظرة جامدة لا روح فيها لم يفهمها تركها وذهب إلى عمله.

القت نظرة أخيرة على المكان

هنا كنا ندرس.

هنا كنا نتحدث ونضحك.

هنا اتفقنا وتعاهدنا.

هنا أيضا افترقنا.

هبطت الدرج وغادرت الكلية.

غادرتها إلى الأبد.

(٤)

طرقت باب البيت بوهن، فتحت أمها الباب فأغشي عليها، كأنها كانت تنتظر أن تكون بين أحضانها حتى تفقد وعيها في أمان صرخت أمل وهي تردد اسمها ونادت على نادية التي هرولت إليها، ثم حملاها إلى غرفتها.

خرجت الجدة من الغرفة على صراخ أمل رأت ليلى مغشي عليها دخلت خلفهما وهما يحملاها ويضعاها على سريرها وسألت بلامبالاة:

- ماذا بها؟

لم يرد عليها أحد وقالت أمل لنادية بتوتر شديد:

- اطلبي الطبيب فورا.

خرجت نادية من الغرفة مسرعة بينما تحاول أمل إفاقة ليلى بعطرها المميز.

قالت الجدة بصوت استشعرت فيه أمل الشماتة:

- ربما جاء الامتحان صعبا فلم تتحمل الرسوب.

كظمت أمل غيظها وقالت:

- قولي ما شئت لكن أرجو عند إفاقتها أن تتركيها وشأنها.

تركتها وغادرت الغرفة لا تبالي بما حدث لها، دخلت إلى غرفتها وأغلقت الباب إلى أن انتهى الطبيب من عمله وغادر ولم تخرج سوى وقت العشاء ولم تسأل ماذا حل بحفيدتها.

فحصها الطبيب وطمأنهن أنها بخير ولا داعي للقلق ربما إجهاد من المذاكرة والامتحانات، ترددت أمل أن تخبره بما حدث منذ عشر سنوات، ثم قررت أن تحكي له كل شيء.

ليلى لديها مشكلات نفسية منذ صغرها، دائما ما يخدعها عقلها ويوهمها بأشياء لم تحدث، رفضت أمل دائما فكرة أن ابنتها مريضة وألصقت ما تمر به بخيال الأطفال.

جميع الأطفال يتحدثون مع أشخاص يصنعهم خيالهم، تارة يكونوا أصدقاء وتارة يكونوا فضائيين أو ربما يتحدثون مع ألعابهم على أنها أناس حقيقيون، يصارعون أثناء نومهم الأطفال الآخرين الذين ربما خطفوا منهم ألعابهم.

آمنت أن ابنتها مختلفة، خيالها واسع ربما أوسع من بقية الأطفال ليس أكثر من ذلك.

ذات يوم ضاعت دمية ليلى المفضلة وظلت تصرخ كثيرا ولم تفلح محاولات الجميع معها في إيجادها أو محاولتهم في تهدئتها ووعدها بشراء أخرى مماثلة لها، وفجأة وقفت وهي تقول:

- دميتي مدفونة في الحديقة.

نظر الجميع إلى بعضهم البعض وسألوها:

- أي حديقة؟

قالت:

- الحديقة التي تقع خلف المنزل.

جرت سريعا إلى الحديقة ولحقوا بها، وقف الجميع في وسط الحديقة يلهثون وينتظرون ماذا ستفعل، أخذت تنبش الأرض بيدها وهي تقول:

-دميتي هنا

تعجبوا من الأمر لكنهم تركوها تبحث عن دميتها، لم تجدها وأخذت تبكي وتنتحب.

لماذا قالت إن دميتها مدفونة ومن أين جاء عقلها بذلك المكان تحديدا!

عندئذ قرر أمير عرضها على طبيب نفسي فالأمر بالنسبة إليه تعدى خيالات طفلة صغيرة.

رجح الطبيب أنه تم الضغط عليها بشكل أو بآخر، ربما للتفوق في دراستها أو للتحلي بأخلاق حميدة، أو مقارنتها

بأختها أو أصدقائها مما دفعها لخلق أحداث لم تحدث وحذرهم أنها ربما في المستقبل يبدأ عقلها في إنتاج ذكريات زائفة لعدم وجود ذكريات عن مكان أو أشخاص ما فيصنع عقلها ذكرى ليسد تلك الفجوة.

أخذ يطمئنهم أنها لا تعاني من شيء خطير ربما هي فقط تحتاج لمعاملة بطريقة خاصة ولأنهم التزموا بتلك الروشتة طوال عشرة أعوام فلم يُلحظ أي أعراض جديدة عليها إلا عندما تعرضت للضغط مرة أخرى تحت تحكمات جدتها.

عندما انتهت من سرد تاريخ مرضها، نصحها الطبيب بزيارة طبيبها النفسي مرة أخرى وعرض حالتها عليه وإعلامه بالمستجدات التي طرأت عليها لكنه لمح التردد في عينيها فنصحها مؤقتا ألا يضغط عليها أحدا نهائيا كما نصح زميله في السابق ثم كتب بعض الفيتامينات ونصحها بالراحة وطلب منها عدم إزعاجها.

أفاقت ليلى في حضن أمها فسألتها:

- ماذا حدث ولماذا عدت مبكرا هل ألغي الامتحان؟

بكت ليلى وقالت:

- لا أنا لم أؤدي الامتحان.

ابتعدت أمل قليلا لتنظر إليها وقالت:

- لماذا؟

جفت الدموع وتبدل الحزن بحقد وكراهية وهي تقول: كل ذلك بسببها,

سألتها: من تقصدين؟

قالت بغل:

- جدتي,

سألتها:

- لماذا؟ هل حدث شيء لا أعرفه؟

صرخت وتطايرت دموعها وهي تقول:

- دمرت كل شيء. كل شيء.

ضمتها أمل إلى حضنها وقالت بصوت حنون:

- اهدأي يا حبيبتي.

دخلت نادية حاملة الدواء الذي كتبه الطبيب فأخذت أمل قرص منه وناولته لليلى ثم أعطتها كوبا من الماء وقالت لها:

- حاولي أن تنامي قليلا.

أطفأت الضوء وخرجت مع نادية من الغرفة وأغلقت الباب، سألتها نادية:

- ماذا حدث لليلى؟

قالت أمل بيأس:

- الأمور تزداد ضبابية بمرور الوقت. ألم أقل لك أنها بالفعل انهارت؟

***

فترة الامتحانات انتهت دون أن تؤدي ليلى امتحانا واحدا ولم تبالي أمل بالامتحانات رغم أنها تتمنى أن يأتي اليوم الذي تتخرج فيه ليلى من الجامعة لكن سلامتها أهم من كل شيء.

بدأت تطرأ على ليلى علامات غريبة يصاحبها سكون تام، تشرد كثيرا وتتكلم قليلا، تأكل ما يبقيها حية فقط، من يعرفها جيدا يعرف أن في حالتها تلك لو ملأت الأرض لها ذهبا لظلت على حالها ولن تتغير فيها شعرة واحدة.

أمل متابعة جيدة لابنتها لكن دون اقتراب أكثر من اللازم كما نصح الطبيب، فقط تدون ملاحظاتها وتنتظر اليوم التالي أن يأتي بتحسن، شيء بداخلها يدفعها ألا تستشير طبيب

نفسي تأمل أن تتطور الأمور إلى الأفضل بدونه، تماما مثلما حدث في السابق عندما رفضت تصديق أن طفلتها الصغيرة مريضة.

هذا الشيء بداخلها كان يخدعها هذه المرة أيضا.

فهي تدون ما تراه بعينيها لكنها لا تستطيع تدوين ما يدور بداخل ليلى، تراها أحيانا تنظر إلى جدتها وتبتسم ولا تعلم أنها بداخلها ترص كلمات قاسية بجوار بعضها فتصنع جمل بشعة لا تستطيع أن تفارق حلقها لكنها تعتبرها خرجت بل ودخلت أذن جدتها وأغضبتها وتأذت منها فتفرح وهذا سر الابتسامة التي تراها.

تدهورت حالة ليلى ووصلت إلى النهايةز

ذهبت إلى أمها ذات يوم وكانت تعد الطعام في المطبخ، ترتسم الكلمات على وجهها، هناك شيء جاءت من أجل البوح به، اصبحت قليلة تلك الأوقات التي تتحدث فيها فأصبح الأمر العادي كالتحدث مع شخص ما أمرًا في غاية الأهمية يبعث على الأمل داخل أمل.

باغتتها ليلى بسؤال مباشر:

- هل جدتي ذبحت قطة أمامي عندما كنت صغيرة؟

هل عادت تلك الأسئلة مرة أخرى!

أخفت وجهها حتى لا تلاحظ حزنها وتابعت ما تفعله دون النظر إليها وقالت: تذبح قطة؟ جدتك لا تذبح الدجاج فكيف تذبح قطة، لماذا تقولين ذلك؟

قالت:

- بلى ذلك حدث أمام عيني أنا أذكره جيدا.

تركت ما تفعله ونظرت إليها وخافت من تعابير وجهها التي تبدلت في ثوان.

ابتسامة بلهاء, عينين تبرقان, نظرة حقد.

شعرت أن مشكلاتها مع جدتها تحولت لكره حقيقي وبدأت ترسم لها في خيالها صورة وحشية غير حقيقية، اقتربت منها وربتت على كتفيها وقالت:

- ليلى، جدتك لم تفعل ذلك، هي تحبك وتخاف عليك لكن طريقتها في حمايتك تختلف عن طريقتي مما أزعجك منها، فلا تتركي عقلك للشيطان يلعب به ويصورها لك في صورة خاطئة.

نظرت إليها بغضب شديد فحاولت أمل احتواء الموقف وقالت:

- أعلم أنها فعلت معك الكثير أنا لا أنكر ذلك لكن هذا طبعها، أتعلمين عندما كنت في مثل عمرك كانت أقوى وأشد من الآن لم تكن تتحدث بما تريده مني كانت فقط تنظر إليّ نظرات ترعبني، حاولت التمرد عندما كنت طفلة على هذا الأسلوب الذي لم أرَ واحدة من صديقاتي تُعامل به ويا ليتني ما حاولت التمرد فقد سمعت كلمات لم أستطع نسيانها حتى الآن.

نزلت على ركبتها ونظرت إلى عيني مباشرة بنظرات قوية وقالت:

- أبق على طاعتك لي وتخلصي من أي فكرة عن العصيان والتمرد تجنبي غضبي قدر الإمكان.

تنهدت وهي تتذكر قائلة:

- ربما لذلك أتحمل ما تفعله لأنه أقل بكثير مما عانيته أنا، أنظر إليها الآن وأرى تجاعيد وجهها التي تكونت وصنعت وجها آخر طبع الزمن علامة مروره فوقه، صاحبت البحة صوتها الرفيع، انحنى ظهرها قليلا وصارت أقصر مني، كل هذه التفاصيل لم تمحُ صورتها الأولى من خيالي وأخاف منها كأنها مازالت في ريعان شبابها ولا زلت أنا طفلتها الصغيرة.

أفاقت من ذكرياتها وقالت:

كما أنك في طفولتك كنت بعيدا عنها ووالدك كان يصدها

إذا تطلب الأمر ذلك فما تفكرين به غير صحيح ولم يحدث أن ذبحت قطة أمامك أو ذبحت قطة من الأساس برغم قسوتها وطبعها السيء فإنك تصوريها بصورة أبشع مما هي عليه.

ابتسمت ليلى ابتسامة مرعبة وقالت بهمس وهي تضغط على حروف كلماتها:

- بل فعلت ذبحت قطة أمام عيني وهي تنظر إلى بسخرية وأرادت أن تثير الرعب فيّ.

ربتت على كتف أمل بابتسامة مرعبة ورحلت.

***

تعرضت ليلى لضغط عصبي ونفسي لمدة عام، وجدتها لا تهدأ فلديها من خبرة الحياة والمواقف ما تستطيع به تحمل كل أفعال وردود أفعال ليلى تجاهها بل وتزيدها عندًا وإصرارًا على استكمال ما تفعل تحت ستار التربية الصحيحة والخوف عليها وحمايتها من العالم الخارجي.

أما ليلى فقد اتخذ الأمر معها منحنى آخر ولم تعد تتحمل، كل منا لديه طريقة في الدفاع عن نفسه تجاه المشاعر السلبية التي تملأه تجاه شخص آخر.

وكانت الذكريات الزائفة هي طريقة ليلى في حماية نفسها.

وبدأ خيالها يصنع تاريخ من الذكريات الزائفة عن جدتها.

قررت أمل التحدث إلى أمها ومواجهتها، ليلى تذبل أمام عينيها وهي لا تبالي، أصبحت تكره كل شيء كانت مقبلة عليه، لا تخرج لا تأكل لا تتحدث، حتى فارس لا تريد الحديث عنه، الأمر واضح وضوح الشمس لقد فشلت قصة حبهما والسبب واضح أيضا.

صفعة واحدة عصفت بكل شيء.

طرقت بابها ليلا فسمعت صوتها يسمح لها بالدخول، دخلت وجلست على كرسي بجوار أمها، لم تعطي مقدمات ودخلت في صلب الموضوع قائلة:

- أمي، أشعر أن ليلى ليست بخير وأرى أنه يجب أن تخففي من حدتك معها.

كانت تشاهد التلفاز فوقفت وذهبت لتخفض صوته حتى تطلق عليها كل ما يجب أن تناله من توبيخ، قالت:

- ما أفعله لصالحها.

ردت عليها أمل قائلة:

- لكنك دائما تنتقديها ولم تَكُفي يوما عن مراقبتها والأمر

أصبح بالنسبة اليك عندًا ليس أكثر.

غضبت أمها وصاحت بها:

- عند؟ أنا أخاف عليها.

قالت أمل: بماذا نفعنا هذا الخوف، لقد دمر كل شيء، أنت تهدين ما بنيته لسنوات.

صاحت بها: تأدبي.

فواصلت أمل في إصرار:

- ليلى مريضة منذ صغرها ولا تتحمل كل هذه الضغوط.

سألتها بلامبالاة:

- ماذا بها؟

قالت بحزن:

- نفسيتها ضعيفة هشة، عندما نضغط عليها تصبح كما ترين، أم أنك لا تلاحظين كم بدت نحيفة وضعيفة وشاحبة!

قالت بهدوء:

- اقرأي لها قرآن تصبح بخير.

عجز لسانها عن الرد، بعد دقيقة استجمعت شجاعتها

وقالت:

- بعد أيام قليلة سنعود إلى القاهرة أنا وابنتي فقط، ولأنك تقدمت في العمر وليس لك أبناء سواي ومات أخوتك ولن يتحملك أحد فأنا تحملت الكثير لكن لن يكون الثمن ابنتي

احتدت عليها ولكزتها في كتفها وهي تقول:

- أنت أم فاشلة لم تستطيعين تربية ابنتك فكبرت على التمرد والعند والصوت العالي ومصادقة الشباب والآن تلصقين كل هذا بي أنا حاولت معالجة ما فشلت فيه أنت.

قالت أمل:

- أنت لا تفعلي نفس الأمر مع نادية، لا تراقبيها، لا توبخيها، لا تعرفي عنها شيء لمجرد أنها لا تحتك بك.

قالت:

- نادية فتاة مهذبة وتستمع إلى نصائحي دوما أما فتاتك المدللة فهي لا تريد أن يحكمها أحد ولا حتى أنت.

قالت في هدوء وهي تقف استعدادا لإنهاء المناقشة:

- نادية تتجنبك يا أمي، فقط تتجنبك.

أرادت أن تقول لها أنها أيضا لا تحبها مثل ليلى تماما لكنها

آثرت الصمت، وتركتها وذهبت.

***

يجلسن على المائدة بدون كلمة واحدة، بدأت نظرات ليلى لجدتها تخيف أمل، صمتها الذي بدأ يصاحبها يوترها، بدأت ترى كل أفعالها مخيفة حتى طريقتها في الإمساك بسكينة الطعام بدت غريبة، نظرت إلى السكينة التي بيدها وجدت أنها تمسكها بنفس الطريقة، من الواضح أن أعصابها تلفت تماما، الأمر يزداد سوء قررت أن تكون هذه الليلة الأخيرة في هذا البيت رغم أنها لم تستعد بعد للرحيل ولم تخبر ابنتيها بقرارها الذي جاء بعد فوات الأوان.

اتجهت كل منهن إلى غرفتها وساد الصمت والظلام في البيت.

عندما اقتربت الساعة الثانية عشرة ليلا، كانت أمل في غرفتها تفكر في خطوتها القادمة، كانت منغمسة في التفكير قبل أن تسمع صوت أنين، اعتدلت على السرير وركزت سمعها لثوان للتأكد مما يصل إلى أذنها ثم نهضت وفتحت باب الغرفة فارتفع الصوت، جالت عيناها بتلك الأبواب المغلقة أمامها، باب غرفة نادية مغلق، باب الحمام مغلق لكن الحمام مظلم مما يدل على عدم وجود أحد بالداخل، باب غرفة ليلى مفتوح والغرفة مظلمة يبدو أنها ليست بالداخل،

أما باب غرفة أمها فكان في زاوية لا تراها.

اتجهت إلى غرفتها وقبل أن تصل إلى الباب عرفت أنها مصدر الصوت حيث يعلو كلما اقتربت منها، ثم رأت الباب موارب والضوء خافت، اقتربت بهدوء ونظرت فوجدت ليلى تلف حبل حول رقبة جدتها وتشد عليه بضراوة كأنها حيوان بري متوحش، تقف خلفها بينما تجثو الأخرى على ركبتيها، العروق تنفر ويد أمها تمتد مفرودة بجانبها كأنها تبحث عن طوق نجاة، العين تدمي والأنف تنزف والبول يتسرب على فخذيها يرسم خيوط رفيعة تتلوى كالثعبان.

ابتسامة ليلى المفزعة وعيناها اللتان تبرقان وجسدها الذي يرتعش وهي تطبق الخناق على رقبة جدتها، كل هذا يثير الذعر والقشعريرة في جسم أمل، يجب عليها خنقها بقوة أكبر لتموت أسرع لكنها تشد الحبل بكل قوتها ثم ترخيه قليلا وتعود لشده مرة أخرى، يبدو أن موتها بالبطيء يمتع ليلى، إنها تتلذذ بآلامها، تشاهد أمل ما يحدث كأنه مشهد سينمائي ليس لها دخل به، سينتهي كيفما يريد المؤلف.

ربما خافت من ابنتها ربما أرادت لأمها ذلك. في النهاية فضلت عدم التدخل.

تركت ليلى جدتها تسقط على الأرض تجاهد لتلتقط أنفاسها، زحفت الجدة خطوة واحدة ناظرة إلى الشباك

تتطلع إلى أكسجين، بينما تشد ليلى كرسي وتصعد عليه لتعلق الحبل ذاته في السقف، وتسحب المسكينة مرة أخرى في قوة لا تتناسب مع جسدها الرقيق وتعلقها في الحبل ثم تركل الكرسي بقدمها وتقف تنظر إليها وهي تحتضر.

كان الوقت كافي كي تعود أمل إلى غرفتها سريعا.

أطفأت الضوء ونظرت عبر الباب الموارب، كانت تخشى على نادية منها لكن ليلى اتجهت إلى غرفتها وأغلقت الباب.

***

(٥)

شهق مروان عبر الهاتف قائلا:

- قتلتها!!

أجابت ببرود:

- نعم قتلتها وهل هي لا تستحق!!

قال:

- هذه جريمة قتل لكنها ربما تبدو كانتحار.

ضحكت قائلة:

- هل تدري حجم المعلومات التي أعطيها لك وكيف أنت مميز الآن!!

حقا لقد شعر بالنشوة عندما امتلك معلومات لا يملكها أحد سواه لكن فضوله هو المسيطر عليه الآن.

قال:

- هل تم اكتشاف الجريمة أم أنها قيدت انتحار؟

قالت:

- يكفي هذا اليوم سأتحدث إليك في مثل هذا اليوم

الأسبوع القادم

هتفت في حماس:

- لا.. لا تتركي القصة عند هذا الحد دون أن تكملي يكاد الفضول أن يقتلني.

قالت بإصرار:

- لاحقا

حاول استدراجها لتقول شيء عن نفسها قائلا:

- لا أظن أنك تستطيعين الذهاب إلى عملك فقد أصبحت الساعة الرابعة صباحا.

قالت بحزم: لاحقا

قال في محاولة أخيرة:

- لدي فضول أن أعرف إذا كنت واحده منهن أم لا، أمل أم ليلى أم نادية؟

قالت:

- يجب أن يكون هذا آخر شيء تفكر به

ثم أغلقت الهاتف فورا.

***

ظل حوالي ساعة حتى امتلأ الكون نورا يفكر في الحكاية منذ بدايتها ويجمع خيوطها ويعدها لتكون روايته التالية، يفكر في أبعاد شخصياتها أبرزهم أمل الشخصية الضعيفة التي نالت منه قدرًا كبيرًا من السخط، ثم ليلى الشخصية الهشة التي تأثرت نفسيتها كثيرا بما يدور حولها لتحولها إلى قاتلة وأخيرا شخصية الجدة المتسلطة الملعونة ممن حولها، أما نادية فهي شخصية هلامية ليس لها أهمية تذكر وأمير وفارس كانا شخصيتين أشبه بالجسر فقد عبر أمير بأمل إلى بر الأمان بينما عبر فارس بليلى إلى النهاية.

طرأ في ذهنه البحث في الأمر ولحسن الحظ أنه لن يبحث في مصر كلها بل في محافظة واحدة فقط في الفيوم، تساءل هل من السهل الاستعلام عن انتحار سيدة عجوز أو قتلها في الفيوم!

ليس لديه أي معلومات عنها لا يعرف حتى اسمها ربما تعمدت ألا تذكره ربما لأنها معروفة في بلدتها وربما هو يتخيل ذلك، لا يعرف عنها سوى أن لديها ابنة وحيدة اسمها أمل وحفيدتان هما ليلى ونادية.

الفضول يتكاثر بداخله يريد أن يصل إلى البيت الذي تمت به الجريمة فيحفظ تفاصيله ليصفه بطريقته في الرواية،

يتحدث إلى الجيران ويعرف المزيد ربما يصادفه جار فضولي يرى زوايا أخرى للشخصيات أو الأحداث لم تصل إليه، ويكون حظه من السماء إذا رأى واحده من بطلات هذه القصة فيستطيع وصفها بالتفصيل في روايته الجديدة.

لكن ماذا إذا كانت تلك المتصلة تعبث معه.

ربما هذه الحكاية مزيفة.

وربما تكون حقيقية ويقحم نفسه في الشبهات.

لكن ماذا لو كانت حقيقية واستطاع الفوز بتفاصيل أكثر مما يعرف!

الأمر يحتاج إلى مجازفة ومغامرة جديدة من مغامراته.

عليه البدء اليوم، يحتاج إلى النوم بضع ساعات ثم السفر إلى الفيوم، أمامه محافظة كبيرة يبحث فيها عن شخصيات لا يعرف عنها شيء سوى أسماؤهم والعودة سريعا قبل أسبوع ليلحق باليوم الذي حددته للاتصال به واستكمال الحكاية، يأمل أن يفاجئها بمعرفته لباقي أحداثها، يريد أن يكون هو في المرة القادمة الراوي.

في طريقه إلى الفيوم أعاد ترتيب بعض الأحداث في خياله وأضاف بعض الأبعاد إلى الشخصيات وأضاف

شخصيات وألغى أخرى، تخيل باقي أحداث الحكاية أرادها دموية أكثر فإن جاءت الحقيقة عكس ذلك يمكنه إضافة بعض من هذه المشاهد وإن جاءت الأحداث كما تمنى يكون ذلك أفضل.

وصل إلى الفيوم حاملًا حقيبته الصغيرة بها قليل من الملابس، رحلة مفاجئة غير محسوبة وبلد غريب لم يزره من قبل، سأل عن نزل قريب يكون سعره في متناول اليد، دله الناس على أكثر من نزل فاختار الاسم الذي تكرر أكثر.

وقف أمام النزل، وجده متواضع الهيئة لكنه يفي بالغرض، دخل إلى ساحة الاستقبال وطلب حجز غرفة سأله الموظف عن مدة الإقامة احتار قليلا ثم قال أربعة أيام حسبها سريعا فلابد من العودة للقيام ببعض الأمور وانتظار المحادثة الأسبوعية.

أهم ما يميز النزل أنه نظيف وهذا أمر هام جدا له، هو لم يعتد الفخامة ولا يملك ثمنها رغم صيته في مجال عمله لكنه اعتاد النظافة والترتيب وورث حبهما من والدته.

رتب ملابسه -رغم قلة عددها- في الدولاب وتناول وجبة خفيفة أحضرها معه وقد أعدتها له والدته قبل سفرها، تذكر أهله وهو يتناولها لقد نسى أن يعتذر لهم عن عدم الحضور .

هذه السيدة أصابته بالتيه والارتباك.

خرج يتجول في المدينة قليلا ويسأل عما جاء من أجله، يبحث عن نقطة في بحر لكن لديه أمل بالعثور على شيء، احتار من أين يبدأ وهل من يعرف شيء سيبوح به لشخص غريب!

ادعى أنه صحفي وجاء من أجل تحقيق صحفي عن سيدة عجوز ربما تكون انتحرت أو قتلت، سأل عدة أشخاص لكن لم يعرف أحد شيء عن هذا الحدث نظرات الناس له عند سؤالهم أحبطته كثيرا يتعجب الناس أن أمر كهذا يحدث هنا ولا أحد يعرف عنه شيء.

الأربعة أيام في طريقها للانتهاء ولم يحدث جديد، انتظر حتى نهاية اليوم الرابع على أمل أن يتحقق ما يحدث في رواياته ويأتي الفرج في آخر لحظة فيظهر رجل عجوز يسير على عكاز يعرف كل كبيرة وصغيرة في البلدة يضايفه في منزله المتواضع ويصنع له القهوة على طريقته الخاصة ويحكي له قصة القتيلة منذ نعومة أظافرها وحتى ليلة مقتلها لكن ذلك لم يحدث.

لملم أشياءه وعاد من حيث أتى دون أن يجد أي أثر للحكاية.

دخل إلى البيت يجر أذيال الخيبة لم ينتبه إلى الأنوار المضاءة في البيت لكنه انتبه على صوت أخيه يقول وهو ينظر إلى حقيبته الصغيرة:

- أين كنت هل كنت في نزهة؟

جلس مروان على الكرسي يرتاح من درجات السلم المرتفعة ثم قال:

- اضطررت للسفر لأداء بعض الأمور المتعلقة بالعمل، لماذا عدت وأين أبي وأمي؟

جلس بجواره وقال:

- مازالوا هناك في رأس البر لن يعودوا قبل شهر على الأقل.

قال مروان:

- لكنك قلت إن إجازتك عشرة أيام لماذا عدت الآن؟

قال رامي وهو يتجه إلى غرفته ليبدل ملابسه:

- مللت لا أحب المصايف العائلية أفضل أن أخرج هنا مع أصدقائي

أخذ مروان حقيبته بعد أن ارتاح من السلم ودخل إلى غرفة أخيه وقال له مازحا:

- إذن الطبخ عليك أنا لا أفقه شيء به.

ضحك الاثنان ووعده رامي بأن يلبي طلبه.

***

هذه الاتصالات تطلبت منه إلغاء العديد من الأعمال برغم كونها في المساء لكنها شوشت على ذهنه بشكل كبير لم يستطع بعده التركيز في أمور أخرى.

في اليوم المحدد أعد كوبا من القهوة وانتظر اتصالها، يود لو كان مبكرا فاقتراب رامي من العودة إلى البيت ورؤيته إياه سيجعله يظن أن تلك المحادثة الهاتفية غرامية، فلا يعرف أنها مليئة بالأمراض النفسية والقتل.

ارتفع رنين الهاتف رفع السماعة فقالت كأنها صديقة قديمة لي:

- كيف حالك؟

أجابها: بخير وأنت؟

قالت: على ما يرام

قال في خبث: وكيف حال من معك أم أنك تعيشين بمفردك؟

تجاهلت سؤاله وباغتته بسؤال آخر: هل توصلت لشيء في الفيوم؟

كان ممدا على الأريكة فاعتدل من فوره قائلا: وكيف عرفت بذلك؟

لم تجب بل قالت بلهجة غريبة كأنها تعاتب طفلًا أخطأ:

- ألم أشترط عليك ألا تتدخل في الأحداث التي أرويها لك!

عض على شفتيه عندما تذكر أنها قالت هذا بالفعل قائلا:

- لقد نسيت تماما، كيف عرفت أنني سافرت؟

تجاهلته مرة أخرى وسألته:

- هل حصلت على ما تريد؟

أجاب بخيبة أمل:

- لا، لم يسمع أحد عن هذه الحكاية

قالت:

- قلت لك لا تتدخل في الأحداث أنت بذلك تفقد متعتك في الاستمتاع بها.

قال ساخرا:

- ربما ليس لها أثر لأنها لم تحدث.

قالت:

- هل ابدأ حديث اليوم؟

لا تحب أسئلته الفضولية ولا تجيب عليها، لا تقول سوى ما تريد قوله فقط، عرف ذلك عنها فاختصر حديثه قائلا:

- ابدأي

(٦)

كانت نظراتها حادة وقوية، نظرات متسائلة عما يريده منها ذلك الضابط المتحذلق الذي يبادلها تلك النظرات بنفس الثبات الذي يملأها، جميلة هي بشعرها المموج الأسود وملامحها الغجرية.

تفحصت ملامحه الهادئة التي تبعث على الراحة والتي رغم وصولها إليها إلا أن عينيها مازالتا تطلقان نظرات غاضبة، جلسا في حجرة ضيقة متواضعة في قسم الشرطة بالإسكندرية غابت عنها الشمس تماما وأضفت جدرانها الصفراء البائسة جو من الكآبة عليها.

بدأ الحديث قائلا:

- اسمي وائل.

صمت وهو يعلم أنها لن ترد عليه ثم استطرد:

- علمت أن اسمك لمياء وأن عمرك ثلاثون عاما.

ابتسم وهو يستطرد:

- أتعلمين، تبدأ المرأة في النضج ابتداء من هذا العمر.

نطقت أخيرا بدون أن يحمل وجهها أية تعابير تذكر:

- ويبدأ الرجل في النضج عندما يتخطى سن الأربعين مثلك.

كاد أن يبتسم ويثني على فراستها لولا أنها أكملت قائلة:

- عمرك الآن اثنان وأربعون أليس كذلك؟

دهش قائلا:

- وكيف عرفتي عمري؟

قالت: أخمن

شعر بالضيق، فقد جزءًا من سيطرته عليها حتى وإن بدا الأمر مجرد توقع صائب، لكن بداخله يشعر أنها أصبحت ند له.

***

قاطعها مروان قائلا:

- مهلا ألم تذكري سابقا أن ليلى عمرها عشرون عاما وأن هناك نادية سبعة عشر عاما وبالتأكيد أمل تخطت الأربعين من عمرها؟

قالت:

- نعم

قال:

- إذن ما علاقة لمياء هذه بالأمر؟

أجابت:

- ليس لها علاقة

انفعل قائلا:

- إذن أين باقي حكايتهن؟

قالت:

- ليس هناك باقي للحكاية فقد انتهت عند هذا الحد

قال معترضا على هذه النهاية التي لا تشبع فضوله:

- لكني أريد أن أعرف مصير ليلى هذه الفتاة المريضة التي قتلت جدتها؟

قالت:

- لن تعرف.

سألها:

- لماذا؟

قالت:

- هذا عقابك لأنك لم تلتزم بالشرط كما وعدتني

قال متهكما: عقابي؟

قالت محذره إياه: نعم عقابك وإن تدخلت في هذه الحكاية لن أكملها أيضا

قال:

- إذن أنا أرفض هذا الشرط.

قالت:

- وما فائدة هذه اللعبة بدون الشرط!

اللعبة لابد أن تحتوي على بعض القواعد لتحقيق المتعة، القواعد جزء لا يتجزأ من اللعبة، أن تحاول منع نفسك من التدخل في الحدث وتتراجع ثم تشعر بالذنب فتحاول اللحاق بالحدث ثم تخاف أن تفقد بقية الحكاية فتحاول منع نفسك من التدخل مرة أخرى.

سألها في جدية:

- ما جدوى أن تحكي لي؟

قالت:

- أضع الأمر بين يديك هذا كل شيء

قال:

- ربما ما تقولينه ليس حقيقي.

قالت بضيق:

- ربما، هل تريد استكمال حكاية لمياء أم لا؟

بدا الإصرار والغضب واضحين في صوتها، ولولا أن بداية حكايتها جذبته ويريد معرفتها ما كان استسلم لها قائلا:

- نعم أريد

***

طال صمته ونظراته الحائرة لها فقالت:

- ماذا تريد مني؟

قال: الحقيقة في قضيتك

سخرت قائلة:

- قضيتي؟ ليست لدي قضية. كل ما في الأمر أنني شاهدة في القضية ورغم أنني قلت كل ما لدي إلا أنني هنا كل فترة وهذا عمل غير قانوني.

قال:

- معك حق هذا أمر غير قانوني لكنك تثيري حولك الشبهات أيضا وهذه قضية كبيرة ولم يتم حلها بعد.

قالت في شماتة واضحة:

- فشلت الشرطة في العثور على الجاني وهذا الأمر لا يخصني في شيء، لقد قلت كل ما أعرفه عن تلك الجرائم.

قال وائل:

- لا بالتأكيد لم تقولي كل شيء.

انفعلت قائلة:

- هل أنا الشاهدة الوحيدة في هذه القضية اللعينة!؟ هناك أفراد غيري لماذا أنا التي تفعلون معها ذلك؟

قال في هدوء وهو يخطط بقلمه على ورقة بيضاء موضوعة أمامه:

- بناية مكونة من أربعة طوابق، كل طابق يحتوي على شقتين، تسكنين أنت في الطابق الثاني وأمامك شقة، قرر مالكها أن يبيعها بعد أن انتقل إلى مكان آخر وظلت مغلقة لمدة خمس سنوات وما أن فكر في تلك الفكرة اللعينة حتى قُتل ثلاث أفراد.

جرائم أصابت السكان بالرعب والفزع وقرروا أن يغادروا

البناية، البناية أصبحت خالية ومصدر شؤم لجميع سكان الحي، وبدأ الحديث عند البعض عن سكنها بالأرواح التي قُتلت ورغبتهم في الانتقام من القاتل، ومع ذلك كله أنت الساكنة الوحيدة التي بقيت في البناية ورفضت مغادرتها، ألا تعتقدين أن ذلك الأمر مريب بعض الشيء، ويثير حولك التساؤلات والشبهات؟!

قالت في هدوء:

- ربما يحتاج الأمر إلى قليل من الشجاعة، وربما يحتاج الأمر إلى المال وربما أشياء أخرى.

تنهدت ثم قالت:

- دعنا نفكر بالمنطق قليلا، مثلا سكان البناية من هم؟

في الطابق الأول سيدة عمرها خمسة وستون عاما تعيش بمفردها، يزورها أولادها بين الحين والآخر، نعلم بوجودهم سريعا فأولادهم مصدر إزعاج لكل السكان لا يتحدثون بل يصرخون، يقفزون أثناء نزولهم السلم وصعودهم أيضا.

في الجهة المقابلة من شقتها تقع شقة بها رجل وامرأة متزوجان حديثا، مر على زواجهما ستة أشهر عندما رحلا من البناية.

في الطابق الثاني تقع شقتي وتلك الشقة الملعونة.

وفي الطابق الثالث تعيش سيدة أرملة مع أولادها تصرخ بهم كل يوم عدة مرات لعدم طاعتهم لها وتصرخ أيضا مع إخوتها حيث يأتون بعروض زواج لها مع علمهم أنها رافضة الزواج نهائيا بعد وفاة زوجها.

وفي الجهة المقابلة تقع شقة تعيش بها سيدة مع أولادها أيضا يعمل زوجها في إحدى دول الخليج، تتميز إجازته السنوية بأن بدايتها كأنها شهر عسل ونهايتها مشاجرات يومية وشكاوى من زوجته بأن الحياة بهذا الشكل ليست حياة حقيقية ويجب لم شمل الأسرة ومشاركتها تربية الأولاد وتحمل المسؤولية معها.

في الطابق الأخير يعيش شيخ كبير تعدى عمره السبعين، ليس له أحد، يأتي بعض الشباب يسعون في الخير يتولون رعايته والإنفاق عليه.

نفذ صبره قائلا: وماذا بعد أن استعرضنا سكان البناية!؟

قالت:

- ما قلته عن السكان وحالاتهم الاجتماعية هو نفسه ما يعطيك سبب تركهم للبناية، فبالتأكيد أولاد العجائز خافوا عليهم وهناك الأرملة تعيش بمفردها والأخرى زوجها يعمل

بالخارج وحتى الزوجان حديثي الزواج فربما خاف الزوج على زوجته لأنه يعمل ليلا نهارا ويتركها وحيدة بالمنزل.

كل من هؤلاء لديه أحد يخاف عليه أو هو يخاف على أحد، الحياة لديهم لها ثمن، أما أنا فليس لدي من يخاف على أو أخاف عليه.

سألها:

- أين عائلتك؟

قالت:

- بالخارج

قال:

- حتى إن كانوا في الخارج ولا يعلمون شيء عما يحدث هنا فيجب أن تخافين أنت على نفسك؟

قالت في ثبات:

- أنا لا أخاف الموت.

ابتسم بزاوية فمه وهو يقول: هذا هراء.

نهض قائلا: ستبقين هنا إلى أن نشعر أنك تقولين الحقيقة، سأتركك إلى غد ربما غيرت رأيك وقلت الحقيقة.

استطرد متعمدًا إغاظتها:

- أما أنا فسوف أذهب إلى بيتي لتناول العشاء ومشاهدة التلفاز والنوم على سريري الدافئ المريح ثم أعود لك غدا إن تذكرتك.

شعرت بما يرمي إليه ولم تجعله يراها مغتاظة بل على العكس تماما أظهرت لامبالاة جعلته يصفق الباب خلفه في قوة.

***

ما بال تلك الغرفة كأنها لا تمت لقسم الشرطة بصلة، كأنها بمعزل عن العالم، لا أحد يدخل أو يخرج، لا تسمع صوت بالخارج، لو كانت آخر كائن حي على سطح هذا الكوكب ما كانت لتشعر بالوحدة لهذه الدرجة.

طال غيابه أكثر مما قال ولم يعد في الصباح وكأنه نسيها فعلا.

الظمأ شق حلقها.

والجوع نهش معدتها.

جسمها تيبس من برد تلك الغرفة وكأنها شيدت خصيصا لتشعر روادها بالبرد.

غمض جفنها فرأت في كوابيسها أفراد الأمن وهم يحاوطوها من جميع الجهات يتلون عليها جرائم لم تفعلها يطلبون منها الاعتراف بها، لم يستطيعوا التوصل إلى الجناة ولن يقبلوا بهزيمتهم أمام رؤساءهم فلتكن هي الضحية.

السجن لها والترقية والعلاوة لهم.

انتفض جسمها المسترخي على الكرسي، استيقظت، صدرها يعلو ويهبط بفعل دقات قلبها القوية، احتاجت دقيقة حتى استوعبت أن ذلك كان كابوسا.

أخيرا سمعت صرير الباب أثناء فتحه بعد أن ظنت نفسها صماء، فتلك الساعات الفائتة لم تسمع أي صوت ولا حتى مواء قطة كأن الكون أصبح بلا أرواح تسكنه.

ظهر وائل مهندم الملابس ورائحة عطره تملأ الغرفة، عيناه تبدو عليهما الراحة مما يعني أنه نام جيدا وبطنه تبدو منتفخة من الطعام والشراب أو هكذا تخيلت من شدة جوعها وظمأها.

اقترب وسيجارته بين إصبعيه كالعادة، جلس أمامها قائلا باستخفاف:

- كيف حالك يا لمياء؟

قالت بصوت منهك مكابر:

- بخير.

قال:

- هل نويت قول شيء جديد عما سبق؟

نفت بحركة رأسها دون أن تتفوه.

قال بغضب:

- أنت حقا عنيدة.

قالت بصوت واهن:

- أنت تحقق معي منذ شهور، ولي في القسم ثلاث ليال لم أغير فيها أقوالي ولن أغيرها فأنا حقا ليس لدي شيء أقوله.

حقا لم يتغير حرف واحدا من أقوالها، لا فرق بين كلامها في أول محضر عن الجرائم وآخر محضر، عادة الكاذب ينسى ما يقول ويزيد أو ينقص كلاما بينما هي ثابتة على ما قالته في البداية.

سألها وهو ينفث دخان سيجارته:

- ما هو عملك؟

اتسعت عيناها قائلة: هل هذا تحقيق آخر؟

قال:

- أعتقد ذلك.

قالت بضعف:

- لن أستطيع الخضوع إلى تحقيق آخر، لم أذق طعم النوم أو الراحة منذ ثلاث ليالٍ.

قال ساخرا:

- أتتهميننا بسوء الضيافة!!

أنتِ ضيفتنا منذ ثلاث ليالٍ، وضعنا لك كرسي تجلسين عليه وطاولة وضعنا عليها الشاي ثلاث مرات وأحضرنا لك ثلاث وجبات من الفول وزجاجة مياه كبيرة ألا يكفي ذلك؟

إنه قادم من بيته الدافئ الذي تعد هذه الغرفة ثلاجة بجواره، ملأ معدته بطعام لذيذ من صنع زوجته، بالتأكيد هو متزوج فهو يضع خاتم الزواج، لم يأكل مثلها وجبة واحدة في اليوم وكانت عبارة عن القليل من الفول رديء الطعم والرائحة، بدل ملابسه واستحم ووضع عطره باهظ الثمن بينما رائحة جسمها إن سارت بها في الشارع لجذبت الذباب.

هذه الاختلافات بينهما جعلتها تعي جيدا أنه يتفوق عليها ويستطيع مجادلتها إلى صباح اليوم التالي دون تعب.

قالت بضعف: أرسم لوحات وأبيعها.

بدت في عينيه الوقاحة وهو يسأل:

- هل ترسمين الرجال؟

احمر وجهها غضبا صمتت لثوان ثم قالت:

- أحيانا أرسم رأس رجل ملحقا بجسم حيوان مناسب لصفاته، الخنزير مثلا

تطاير الغضب من عينيه لكنه لا يستطيع توبيخها عما قالت.

كانت وقاحتها منبعثة من وقاحته.

سألها:

- ألديك إخوة؟

أجابت:

- لدي أخوان يدرسان بالخارج مع أمي وأبي.

سألها:

- لماذا لم تسافري معهم وبقيت وحدك؟

- أفضل الوحدة عن الغربة أما هم فقد فضلوا الغربة على

الوطن.

قال بصوت منخفض كأنه يحدث نفسه:

- ماذا يعني الوطن إن كنت فيه فاقدة لشغف الحياة؟!

قالت:

- وماذا تعني الغربة إن كنت فيها تحيا حياة زائفة، عندما تكون بعيدا عن جذورك مهما حاولت الانتماء فلن تطرح شيئا.

تطرق النقاش إلى أمر فرعي لا محل له الآن لكنه مس جرحه، لم يكن يريد هذه الحياة بين الجرائم والمجرمين ، لم يرد دخول كلية الشرطة لكنها وراثة أب عن جد وإن لم يكن هو وعائلته خريجي كلية الشرطة فمن يليق بها إذن!!

كان يحلم بالهجرة بعد الثانوية العامة، أراد الغربة وبشدة حتى لو أكلت منه وشربت كما ادعى أهله ونصحوه، هم لا يعلمون أن روحه هنا مسجونة وليس بالضرورة أن تسافر لتشعر بالغربة.

قد تقع فريسة الشعور بالغربة حتى في وطنك.

فجأة أنهى التحقيق، قل حماسه وفترت رغبته في معرفة أي شيء الآن، ما قالته فكره بطموحاته المحكوم عليها

بالدخول إلى سرداب مظلم مغلق.

نهض فجأة ثم قال:

- اذهبِ الآن

نهضت بوهن غير مصدقة سائلة باستنكار:

- أذهب؟

قال:

- نعم اذهبِ

نهضت بضعف وسارت ببطء بساقين ملتويتين إلى أن وصلت إلى الباب والتفتت عندما قال بتحد وتهديد:

- سنتقابل قريبا.

نظرت إليه نظرات لا تحمل أي معنى فعقلها وجسدها لا يعرفان الآن سوى الإنهاك.

***

سارت متجهة إلى منزلها، نظرات الناس لها لم تتغير، علامات استفهام ترتسم على وجوههم قبل الثلاثة أيام التي احتجزت خلالها في قسم الشرطة وبعدها.

تلك الفتاة التي تعيش بمفردها في بناية بأكملها حدث بها

جرائم قتل، من أين أتت بهذه الشجاعة!!

تتحمل أعباء البناية كاملة، تتصل بعامل ليقوم بتنظيف سلم البناية ومدخلها فيفعلها وهو يرتعش خاصة عندما يصل إلى تلك الشقة التي قتل فيها ثلاثة أفراد ولولا المبلغ الكبير الذي يتقاضاه منها ما فعل ذلك، يخرج من البناية ليتلقفه الناس سائلين إذا كان رأى أشباح أو عفاريت أو حدث شيئا مثيرا وكل مرة يجيب نفس الإجابة لم أرى شيئا ومع ذلك لم يكفوا عن سؤاله.

البناية قديمة ولا يخلو الأمر من بعض أعمال الصيانة التي تتولاها لمياء بمفردها فتقف مع العامل إلى أن ينهي عمله وتدفع له أجرته من نقودها الخاصة دون أن تطلب من أصحاب الشقق أن يدفعوا حصتهم في ذلك رغم أن لديها أرقام هواتفهم جميعا.

آخر مرة تحدثت إلى أحدهم انفعل عليها وكانت كلماته ذات مغزى عندما سألها لماذا مازالت تقيم في شقتها وكيف لا تخاف على نفسها من عودة القاتل وكاد أن يتهمها أنها القاتل قبل أن يغلق خط الهاتف في وجهها.

دلفت إلى شقتها جائعة عطشه منهكه برغم ذلك لا تريد سوى النوم فقط، شقة واسعة أثاثها أنيق متوسط الحداثة تملأ جدرانها باللوحات الكثيرة معلقة دون عناية.

رفعت سماعة الهاتف منعا للاتصالات المزعجة، وتعلم جيدا أن ليس لديها جيران يطرقوا بابها وليس لدى أحد الجرأة كي يدخل البناية فبدلت ملابسها وغاصت في سبات عميق.

على غير العادة، طرق أحدهم الباب بعد ساعتين من بداية نومها، تسمع الطرق لكنها من شدة التعب تشعر أنها تحلم، فاقت قليلا غير مصدقة أذنيها، أحدهم يطرق بابها!!

نهضت متثاقلة وبعين نصف مفتوحة فتحت الباب لتجد أمامها الضابط وائل بابتسامته اللزجة قائلا:

- كما توقعت تماما مرهقة ونائمة.

قالت وهي تتجه إلى الداخل:

- إذا كنت تعلم ذلك حقا لماذا جئت اليوم كان عليك أن تجيء غدا أو ربما لا تجيء أبدا.

دخل وأغلق الباب خلفه ثم قال وهو يتفحص الشقة:

- أنا تعمدت المجيء اليوم، في الحقيقة أنا أتعمد إجهادك.

حاولت فتح عينيها جيدا ثم قالت:

- أردت أن أقول لك شيء في قسم الشرطة لكنك تعلم أن للمكان هيبة ما شاء الله لذلك اسمح لي أن أقولها في بيتي

خاصة وأنك ضيف غير مرحب به:

- أنت وقح.

رفع حاجبيه قائلا:

- أنت جريئة فعلا.

قالت:

- يمكنني أن أقدم محضر أتهمك فيه باستغلال سلطتك في تطفلك على الناس

قال:

- ألم أقل لك أنك جريئة، ليس كل مواطن معدوم النفوذ مثلك يستطيع فعل ذلك لكني أتوقع منك أي شيء.

زفرت بقوة وغضب فقال:

- سنبدأ بطارق.

قالت مدعيه النسيان: من طارق؟

قال:

- القتيل الثالث.

قالت:

- ومن قال إنني سأتحدث عنه؟

قال باستهزاء:

- إحساسي.

ضحكت ثم عبست فجأة قائلة:

- وإحساسي يقول إنك ستخرج الآن.

تقدمت بضع خطوات نحوه والغضب يكسو ملامحها واستطردت:

- وإلا ستلحق به.

ربما في ظروف أخرى لا يحرك فيه ذلك التهديد ساكنا، خاصة إذا كان من وجه جميل وجسم نحيل لفتاة ثلاثينية لكنه شعر بالخوف فإذا صدق حدسه فهذه قتلت ثلاث مرات -كما يعتقد- ويمكن أن يصيروا أربعة خاصة في بناية لا يقطن بها أحد أبدا.

وقف متظاهرا بعدم المبالاة بتهديدها قائلا:

- لولا إرهاقك واحتياجك للنوم ما تجرأت على قول ذلك.

أشارت برأسها نحو باب الشقة فاتجه إليه وهو يقول:

- سأحضر قريبا لنتحدث عن المقتولين الثلاثة وليس فقط

عن طارق.

خرج وأغلق الباب خلفه فقالت:

- لعنة الله عليك وعلى طارق هذا الفضولي القذر.

***

تم بيع هذه الشقة مرتين، في المرة الأولى كان المشتري رجل يبلغ من العمر سبعين عاما ومعه ابنه وحفيده الرضيع، ويوم انتقالهم أصبح أول يوم إزعاج للمياء حيث اعتادت على عدم وجود أحد يقطن معها في نفس الطابق.

تصميم البناية كان يتيح للجار أن يرى أغلب الغرف لدى الآخر عبر النافذة بالإضافة إلى سماع كل ما يدور في تلك الغرف.

كان على لمياء إما غلق النوافذ أو تركها وتحمل بكاء الرضيع المتكرر، في البداية تركت النوافذ كما اعتادت أن تفعل، ومن وقت لآخر لاحظت أن الجد هو من يرعى الصغير وأن الأب دائما بالخارج.

دهشت كثيرا لأمر هذه العائلة كيف يرعى رجل يبلغ من العمر حوالي السبعين عاما طفل رضيع، وأين الأم من ذلك وإن كانت غائبة لأي سبب فيتعين عليهما إحضار مربية

ربما ترحمها من الصداع الذي أصابها بسبب بكاء الرضيع الهستيري.

بدأت تتلاقى أعينهما ويبتسم لها الجد ابتسامة ودودة لكنها لم تبادله الابتسامة، تعرف جيدا ما سيلحق بها من طلب للمساعدة في العناية بالرضيع وهي لا ترغب في ذلك.

هي لا تحب الأطفال.

بدأت ابتسامة الجد الودودة في الاختفاء شيئا فشيئا ويبدو أنها كانت على صواب عندما أدركت مغزاها، فها هو عندما لم يجد منها معاونة قرر التجهم في وجهها بل وإغلاق النوافذ في وجهها أيضا، مما أثار غضبها وحنقها عليه وبدأت تبادله النظرات الغاضبة وصفق النوافذ في وجهه.

ما كان يجب أن يتجهم في وجهها فقد كان ثمن ذلك كبيرا.

ذات يوم كان صراخ الطفل لا يتوقف وصراخ الجد وابنه في وجه بعضهما لا يتوقف أيضا، كل منهما يتهم الآخر بالإهمال والتقصير في حق الرضيع.

قال الأب:

- وافقت أن أعيش معك أنا وابني فقط بسبب إلحاحك لكن يبدو أنك لم تكن جاد في عرضك هذا.

قال الجد بلهجة محايدة:

- لماذا تقول ذلك، أهلا بكما على كل حال.

انفعل الاب قائلا:

- هل سمعت نفسك كيف تتحدث، إنك لا تبالي، لم تكن مضطرا لاستضافتنا، كان بإمكاني تدبير مربية له تعوضه عن أمه المتوفاة، لكنك صممت أن ترعاه بنفسك.

كانت لمياء تضع وسادة على رأسها في محاولة منها لإدراك النوم لكنها لم تفلح ووصل صراخهما إلى أذنيها، فاعتدلت جالسة على السرير وهي تزفر بغضب وتنعتهما بالغبيين كيف لهما تصور أن هذا الجد الكبير يمكنه ملأ الفراغ الذي تركته أم الرضيع.

استمر الوضع على هذا المنوال مما أصابها بقلة النوم والصداع الدائم، دائما الطفل يبكي وخاصة ليلا.

الجد يصرخ به والأب يصرخ في الجد والحياة بجوارهم أصبحت مستحيلة.

بعد عدة أيام استيقظت على طرق الباب، سمعت جلبة شديدة أثناء اتجاهها إلى الباب وعندما فتحته وجدت ضابط الشرطة وائل وكان هذا لقائهما الأول يخبرها بوفاة جارها

الجديد وحفيده واشتباه في جريمة أدت إلى قتلهما حيث وجد الجد مقيد اليدين وأغلب الظن أنه تم كتم أنفاسه بواسطة وسادة كما يغلب الظن أنه تم قتل الرضيع بكتم أنفاسه أيضا.

لم ترق لها نظراته التي تبدو كنظرات ضباط الشرطة في الأفلام العربية، وكأنه يحاول تصنع الهيبة والذكاء في محاولة منه لإخافة من يتحدث معه، يحكي لها ما حدث بحركات يد مصطنعة، يضيق عينيه في كلمة ويفتحها على آخرها في كلمة عكسها.

لمياء أيضا لم ترق له وتعجب من ردة فعلها.

لم تشعر بالأسف ولم تفكر سوى بالراحة التي ستحصل عليها اليوم وربما عودة الشقة إلى الإغلاق مرة أخرى، ظهر هذا الارتياح على ملامحها ومدها بهدوء ولامبالاة مما أثار الشكوك حولها.

ما أسهل التعاطف مع طفل رضيع وشيخ كبير قتلا حتى وإن كنت لا تعرفهما فكيف إن كانا جيرانك؟

لمح لها وائل أنه يريد الدخول وسؤالها بعض الأسئلة، قالت له أن يسأل ما يريد في تلميح منها أنها ترفض دخوله فقد أرادت إنهاء الموقف سريعا.

سألها عدة أسئلة أجابت عليهم جميعا باقتضاب خاصة الأسئلة الشخصية التي توحي بالشك فيها، عندما انتهى من سؤالها كان الابن المكلوم قد وصل بعد أن اتصل به أحدهم في عمله وأبلغه ما حدث، أخذ يبكي أباه وطفله اللذين رحلا في آن واحد، ورأت وائل وهو يركز عينيه على ردة فعلها، فالحاضرون يبكون معه ويحاولون تخفيف آلامه أما هي فكانت صامته لا تدري ماذا تقول، لم يكن جارها سوى من عهد قريب، لم تلتق به سوى مرتين أو ثلاث على الأكثر لكن صوته كان دائما في أذنها يزعجها مصاحبا ببكاء طفله وصراخ أبيه.

لم تبالي بمراقبة وائل لها أغلقت الباب بوجه خالٍ من أي أسف عما يحدث بعد أن طلب منها أن تحضر إلى قسم الشرطة للإدلاء بشهادتها.

بعد عدة أيام وقفت تحتسي قهوتها وهي تستمتع برؤية العمال وهم يحملون الأثاث المتواضع عائدين به من حيث أتى، وعادت الشقة خالية مرة أخرى.

شاهدت معهم الابن المكلوم، لمح عينيها تلمع فرحا بخلو الشقة فحدجها بنظرة لم تفهمها جيدا، يبدو أنه كان يشعر باستيائها منهم ولم يُظهر ذلك.

اعتادت الحرية وتاهت تماما عندما فقدتها، الآن يأتي الليل

فيصحبه الهدوء الخالي من صراخ الكبار وبكاء الصغار، تمسك بفرشاة وتجلس على كرسي خشبي دائري وأمامها لوحتها التي أطلقت عليها اسم «الحرية»

فُتحت النوافذ على مصراعيها، الموت أحيانا يجلب السعادة فهي ممتنة جدا لموت الطفل وجده.

تلك الرسومات على حوائط الشقة هي من إبداعها، ترسم دائما بهدف البيع أو بدون هدف لذلك قد امتلأت غرف الشقة بلوحاتها حتى اضطرت إلى تعليقها على الحوائط بدون ترتيبها بشكل جمالي نظرا لكثرتها.

تلك الحرية لم تدم وقتًا طويلًا، فبعد شهرين وجدت الشقة طريقها إلى مالك جديد، تعجب الجميع فقد ظنوا أن الشقة لن يتم بيعها مرة أخرى بهذه السرعة، بعد أن قُتل فيها شخصان، لكن هذه الحادثة خفضت من سعر الشقة مما أدى إلى بيعها بشكل سريع.

جاء طارق بشبابه وحيويته وضحكته العالية ليملأ الطابق صخب وإزعاج للمياء مرة أخرى طلت من النافذة لتجد الشاب وهو يرتب أثاثه مع العمال في مرح ومداعبات لا تنتهي، زفرت بقوة وعادت إلى الداخل متمنية ألا يكون معه طفل رضيع أيضا.

ليلًا ساد الهدوء وتسربت إلى أذنيها موسيقى هادئة عرفت مصدرها على الفور، إنه المالك الجديد، بدأت تتابعه وتختلس النظرات عبر النوافذ جسده نحيل وقامته طويلة، يبدو الشقاء على ملامحه، مما يوحي بأنه يعمل عمل شاق يجني منه نقود قليلة لذلك قبل بالعيش في شقة قُتل بها شخصان من أجل سعرها الزهيد.

عرفت أنه يعيش بمفرده وحيدا لم ترَ عنده زوار ،حياته تقريبا مثلها تماما يفعل كل شيء وحيدا، سعيدا بوحدته أو ربما اعتاد عليها مثلها.

لم يكن مصدر إزعاج لها سوى في إجازة نهاية الأسبوع.

يبدأ صخبه بعد صلاة الجمعة مباشرة، يعتاد الناس سماع القرآن يوم الجمعة، عندما تمر بطوابق البناية يمكنك سماع صوت محطة القرآن الكريم على الراديو دون الدخول إلى الشقة.

أما طارق فلا يصلي الجمعة ولا يشعر ببركة هذا اليوم كما يشعر به جيرانه ويبدأ بتشغيل الموسيقى بصوت عالٍ، وكان الجميع يتذمر من الصوت حتى اضطر أحدهم أن يتحدث معه.

طرق بابه ففتح طارق ورحب به وسأله عن حاجته فقال:

- من فضلك أخفض صوت الموسيقى.

قال له:

- أخفض أنت أيضا صوت القرآن.

تعجب وضرب كفا بكف وقال:

- أستغفر الله العظيم أتساوي بين القرآن والموسيقى

قال له:

- لا أنا أساوي بين صوت وصوت.

قال: شتان بين الاثنين.

قال له: إذا كان هناك رجل مريض يحتاج إلى الهدوء والراحة أيفرق معه إذا كان الصوت قرآن أو موسيقى؟!

قال له:

- بالطبع يفرق لأن القرآن يشفي الصدور.

قال له:

- يا رجل أنا أتحدث عن مبدأ إذا كان بإمكانك أن ترفع صوت الراديو أنا أيضا بإمكاني فعل ذلك لا تعط لنفسك الحق وتنكره على غيرك.

كانت لمياء تسترق السمع خلف الباب، إن موسيقاه حقا مزعجة، ليست كالموسيقى التي يسمعها في المساء، لكنها رأت أنه على حق، وتذكرت مقولة الحق يحتاج إلى رجلين، رجل ينطق به ورجل يفهمه.

أما بقية أيام الأسبوع فهو يخرج منذ الصباح ولا يعود إلا ليلا، تعرف أنه عاد عندما تصل إلى أذنها موسيقاه الهادئة.

توقفت عن متابعته في الوقت الذي بدأ يتابعها فيه.

هي أيضا مثيرة للاهتمام فتاة جميلة تعيش بمفردها، ورغم أنها ودودة مع جميع جيرانها إلا أنها لم ترد عليه التحية عندما التقى بها ذات يوم صدفة ودائما تتجنبه.

استوقفها ذات يوم أثناء هبوطه على السلم بينما هي تصعد:

- مساء الخير.

قالت:

- مساء النور.

قال بود:

- أنا طارق جارك الجديد.

قالت: أعلم ذلك.

قال لها: وأنت؟

قالت:

- لا شأن لك.

سألها:

- لماذا أنت ودودة مع جميع السكان إلا أنا؟

قالت له: لا يهم.

سألها:

- هل صدر مني شيء أزعجك؟

أجابت:

- لا.

سألها:

- هل تتجنبيني لأنني أسكن في شقة قتل بها شخصان؟

أجابت وهي تسير نحو شقتها لتنهي الحديث:

- لا

فتحت الباب ودخلت الشقة دون التفاتة واحدة.

أثارت غضبه وحفزته لمعرفتها جيدا حتى وإن أبت، ولدت لديه طاقة من الفضول سيدفع ثمن إشباعها لاحقا.

***

يعمل مندوب مبيعات نهارا ونادل بإحدى المطاعم ليلا، أرهق نفسه في عمله كثيرا من أجل النقود، لم تلحقه شهادته الحاصل عليها من معهد الخدمة الاجتماعية بوظيفة واحدة تؤمن له عيشة كريمة، وكل ما ادخره وضعه في هذه الشقة.

صحيح أنه قتل بها شخصان، لكنه لن يستطيع الحصول على مثلها إلا إذا لطخها الدم، شقة واسعة بها صالة كبيرة وثلاث غرف بالإضافة إلى المطبخ والحمام.

وصفه جيرانه بأنه شجاع ومقدام، وآخرون بأنه صاحب قلب ميت، وقليلون يرون أنه غريب الأطوار وتجنبوا الحديث معه.

هو لم يكن كذلك، على العكس من ذلك كان خائفًا من هذه الخطوة وتردد عند شراء الشقة حتى أنه طلب من مالك الشقة ألا يتكلم معه عن الحادثة وألا يشير إلى الغرفة التي حدثت بها وهو يفحص الشقة قبل شراءها، وقبل أن ينقل صاحبها أثاثه منها، فما علمه عن طريقة القتل جعلته يتخيلها نظيفة خالية من الدماء فقد تم كتم أنفاسهما ولم يذبحا أو

يطلق عليهما الرصاص، ولم تتناثر دمائهما على الحوائط والأرض، تخيل أنهما ماتا أثناء نومهما وأقنع نفسه بذلك.

رغم رؤيته لبعض نقاط الدم على الملاءة والتي نزفها الجد إلا أنه حاول ألا يربطها بالجريمة وقد نجح في إيهام عقله بذلك، ونعت الابن بالغباء كان يجب عليه تنظيف الشقة جيدا قبل عرضها للبيع لكنه في ذات الوقت أشفق عليه مما حدث له بالتأكيد حالته النفسية منعته من دخول الشقة مرة أخرى سوى لبيعها.

هكذا أوهم نفسه حتى يستطيع العيش في هذه الشقة.

كان عليه منذ فترة طويلة أن يستريح ويطلب إجازة من العملين اللذين يعمل بهما لكن حاجته إلى النقود كانت تدفعه للعمل، الآن وبعد أن حصل على شقة بسعر زهيد وفرت عليه مجهود كبير كان عليه بذله ليحصل على مثيلتها ومع وجود جارته التي زرعت الفضول بداخله قرر أن يطالب بإجازة لمدة عشرة أيام.

قرر اقتحام مملكتها الخاصة دون أن تشعر، وتفرغ لها أثناء إجازته، أراد أن يعرف هل الخجل طبيعتها أم هذا غرور وتكبر منها، تمنى أن تكون تلك طبيعتها أو ليتحطم غرورها على صخرة عناده بلا شك.

راقبها جيدا علم عنها كل شيء، حطم السياج الحديدي الذي أحاطت به أسرارها ثم طرق بابها ذات يوم، ذهلت عندما فتحت الباب ووجدته أمامها مبتسما يقول لها:

- مساء الخير.

قالت بلهجة حادة: نعم

قال:

- يجب أن تقولي مساء النور.

دخل مباشرة ووقف يتفحص اللوحات الكثيرة التي تملأ حوائط الشقة قائلا:

- هل هذا رسمك؟

قالت:

- هذا ليس من شأنك.

تابع مدققا في لوحة من لوحاتها رسمت بها ضبع ومن الواضح أنها حاولت أن يبدو جميلا رغم قبحه.

قال:

- لماذا الضبع لماذا لا يكون أسد مثلا؟

قالت بحقد: لأن البشر يكرهون الضباع ويحقرون منها.

قال:

- ربما لأنهم يلتهمون فريستهم حية

قالت بجفاء:

- هي فريسته وأصبحت ملكه يأكلها حية أو ميتة لا يؤثر ذلك في التهامها وربما ترهقه أكثر حيث مازالت حية وتقاوم.

صدته قسوتها عن الجدال فصمت لثوان ثم سار خطوات قليلة ليصبح بجوار غرفة ما وقال بمكر:

- ماذا يحدث في هذه الغرفة؟

تبدلت ملامحها المتغطرسة وارتبكت وما عادت تعرف ما يجب عليها قوله فاستطرد:

- تلك الغرفة أنا أعلم جيدا كل ما يحدث فيها.

حاولت أن تتماسك وسألته:

- وماذا تريد الآن؟

قال:

- أنا أعرف ما يحدث لكن لا أعرف السبب وراء ذلك.

تصنعت الضحكة وقالت:

- وهل تظن أنني سأحكي لك عن السبب؟

قال:

- بالتأكيد، بما أنك تبقين الأمر سرا إذا أنت تخافين من إفشائه.

صمتت فقال وهو يتجه إلى باب الشقة:

- فكري في الأمر جيدا.

أغلق الباب خلفه وترك وراءه أسئلة كثيرة تعبث بعقلها، هي أيضا احتارت أيعلم شيء حقا أم لا، ثم عادت لتقول لنفسها بيأس:

طالما أنه أشار إلى هذه الغرفة إذن هو يعلم.

***

هنا قال مروان عبر الهاتف:

- لماذا تثيري فضولي قولي ماذا يحدث بداخل الغرفة ولا تقولي سنكمل الأسبوع القادم.

قالت: حسنا فقط أصبر

سمع صوت مفتاح باب الشقة وهو يدور فيه وفُتح الباب ودخل رامي يلقي التحية:

- مساء الخير.

وضع مروان يده على سماعة الهاتف ليكتم صوتهما عنها وقال:

- مساء النور.

ابتسم رامي وهو يجلس بجواره قائلا:

- محادثة غرامية!

ضحك مروان قائلا:

- كنت أعلم أن تفكيرك سيهديك لذلك.

قال رامي:

- محادثة حتى الثانية صباحا بالتأكيد لن تكون محادثة عمل.

قال مروان: ليست محادثة عمل لكنها ليست محادثة غرامية، قريبا أحكي لك

تركه رامي ودخل إلى غرفته، رفع مروان السماعة على أذنيه قائلا:

- أعتذر فقد كنت أتحدث مع أخي.

قالت له:

- رامي!

انزعج وقال:

- كيف عرفتِ اسمه؟

صمتت قليلا ثم قالت:

- لك حوار في جريدة ما لا أتذكر اسمها قلت فيها اسمه.

ضاق ذرعا بها، شعر أنه مراقب وخطواته محسوبة بدقة، تعرف أنه سافر الفيوم وتعرف اسم أخيه ماذا تعرف أيضا، قال لها:

- لا أعتقد ذلك.

تذكر أنه يحتفظ بورق الجرائد الذي يحتوي على مقالاته وحواراته الصحفية فقال لها:

- انتظري قليلا سأتأكد بنفسي لدي أوراق كل حواراتي الصحفية.

ترك السماعة ودخل إلى غرفته، أضاءها وبدأ يفتش في درج مكتبه الصغير وحصل على أربعة حوارات صحفية له، قرأها جيدا ووجد أنه بالفعل ذكر اسم رامي في أحدها، أعاد الأوراق إلى الدرج مرة أخرى وأغلقه.

عاد إلى الهاتف وضع السماعة على أذنيه وقال:

- بالفعل أنا ذكرت اسمه في أحد حواراتي.

لم يجد ردًا، فظل يردد:

- مرحبا. مرحبا.

لكنها كانت قد أغلقت الخط وأنهت المحادثة.

المرأة تظل امرأة مهما اختلفت الظروف.

هذا يعني أن عليه الانتظار لمدة أسبوع آخر حتى تتحدث في نفس الموعد، اغتاظ منها كثيرا فقد اختفت عندما اتخذت الحكاية منحى خطير.

ياترى ما السر الذي اكتشفه طارق عنها؟

ماذا رأى أثناء مراقبته لها؟

ماذا ستفعل بعد أن اكتشف أمرها؟

***

بدأ مروان يبشر بروايته الجديدة، كل من يسأله لماذا يختفي هذه الأيام تكون إجابته: أكتب رواية جديدة خلقت من الواقع. لكن أي رواية منهما يقصد.

عندما عاد من الفيوم الأسبوع الماضي كتب مسودة بها كل

الشخصيات وأبعاد كل شخصية وتسلسل الأحداث الخاصة بها وكيفية ارتباطها بالشخصيات الأخرى، ثم توقف حيث توقفت الحكاية حيث يستمع في اليوم التالي إلى نهايتها لكن هذا لم يحدث، وبدأ يتساءل هل يحاول استعطافها كي تكملها له أم يحاول الاجتهاد فيها واستكمالها من وحي خياله.

الآن كتب عن الحكاية الثانية وخطط لها كما خطط للحكاية الأولى ولن يبرح القاهرة حتى تكتمل الحكاية، يملأه ذات الحماس والفضول لرؤية تفاصيل الحكاية من شخصيات وأماكن لكن الحماس والفضول لاستكمال الحكاية أكبر بكثير.

في اليوم المحدد أعد جيدا ما يقوله من اعتذارات وأسف عما قال وظنه بها أنها تكذب، الأنثى هي الأنثى حتى ولو كانت شهرزاد تحكي عن قتلة وضحايا بهدوء كأنها تحكي -كما قالت سابقا-حكاية ما قبل النوم لطفل صغير.

ارتفع رنين الهاتف فأجاب سريعا:

- مرحبا

قالت:

- مرحبا

قال بتأثر واضح:

- أعتذر عما حدث المرة الفائتة.

قالت بصوت محايد:

- لم يحدث شيء.

سألها مندهشا:

- إذن لماذا أغلقت الخط؟

قالت:

- قاطعتني أكثر من مرة، شعرت بالملل وعدم الرغبة في استكمال الحكاية.

كظم غيظه، هي لا تعلم كم يشتاق لاستكمال الحكاية ولا تعلم أيضا أنه يجب أن ينهي سماع الحكاية كاملة قبل أن يعود والداه.

قال لها:

- حسنا لن أقاطعك هيا أكملي

***

عندما راقب طارق لمياء وجد أن هناك غرفة في المنزل

تدخل إليها في أوقات محددة من اليوم ولاحظ أنها في بعض الأوقات تغلق النوافذ بعد الخروج من تلك الغرفة، وذات يوم رأى خيالين في الشقة اتجه أحدهما إلى تلك الغرفة بينما اتجه الآخر إلى فتح النافذة وكانت لمياء.

***

لم يستطع التحكم في فضوله فاندفع متسائلا:

- هل تقصدين أن هناك شخص آخر يعيش معها! أنا لم أقصد مقاطعتك لكنها مفاجئة بالنسبة لي!

قالت وقد بدأت تعتاد على مقاطعته لها:

- بالضبط، شخص تخفيه عن الناس لا أحد يعلم بوجوده.

(٧)

عندما سافر أفراد أسرتها بدأت لمياء تحقد على العالم بأسره، رغم أن عمرها كان عشرين سنة، لكنها شعرت أنها طفلة ذات سبعة أعوام في عالم لا يهتم فيه أحد بها، كانت تسير في الشوارع ترقب الأطفال مع ذويهم بغل وحسد.

ذات يوم وجدت طفل ذي ثماني أعوام يقف وحيدا، ينظر أمامه ولا يتلفت يبدو عليه أنه من أسرة متوسطة الحال، اتجهت إليه وسألته إذا كان يريد المساعدة لكنه لم يرد ولم يلتفت إليها كأنه لا يسمعها حتى بعد أن أعادت عليه الكلام أكثر من مرة، تصورت أنه أبكم وأصم، وقفت بجواره ساعة فلم يتحرك ولم يبحث عنه أحدا أمسكت يده برفق فانزعج، تركت يده ثم بعد قليل أعادت المحاولة مرة أخرى ولم تجد رفضا منه فسحبت الطفل من يده واتجهت به إلى بيتها.

لا تعرف لماذا أخذته، ماذا تريد من طفل أصم وأبكم، نظرت له وهو جالس بجوارها يهتز إلى الأمام وإلى الخلف إلى أن وترها وأتلف أعصابها، نفخت وقالت:

- أنا غبية.

فوجدته يردد:

- أنا غبية.

اتسعت عيناها دهشة وقالت له:

- إذن أنت تسمع وتتكلم

لم ينظر لها وظل يهتز ويقول:

- إذن أنت تسمع وتتكلم.

زفرت ولم تنطق بشيء حتى لا يكرره خلفها.

بعد محاولات عديدة بالكاد عرفت أن أسمه أيمن، بعد عدة ساعات لاحظت أنه طفل غير طبيعي لا يتحدث لا يلعب لا يفرح بالحلوى مثل بقية الأطفال، ظنت أن هذه نتيجة فراقه لأهله، وعندما يمل سيبحث عن اللعبة التي أعطتها له وألقى بها خلف الأريكة، وأنه عندما يقرصه الجوع سيبدأ بتناول الطعام الذي وضعته أمامه ورفضه، وعندما يطول الوقت ولا يجد أهله حوله سيتحدث ويسأل عنهم.

مرت الساعات ولم يحدث ما توقعته!

تحدثه ولا يردا

تأتي بألعاب كثيرة ولا يلعب!

إلى أن وضعت جميع أصناف الطعام التي لديها أمامه فاختار صنف واحد وبدأ يأكله.

مرت الأيام وهي تراقب الطفل وجدته متقوقع على نفسه لم يطلب الذهاب إلى المدرسة أو التواصل مع الأطفال في مثل عمره، لا يبكي من أجل لعبة، لا يطلب الحلوى بل ولا يأكل سوى صنف واحد فقط من الطعام.

علمت أنه مريض لكنها لم تعلم أنه مريض بالتوحد هي فقط رأت أنه طفل مثالي ليملأ وحدتها دون أن يتطلب منها مجهود كبير فهي لن تهتم بتربيته ولا تعليمه أو شفاءه من مرضه، هي تعامله كالحيوان الأليف الذي يشتريه صاحبه حتى يحميه من الوحدة ويسليه.

لابد أن أمه الآن تبحث عنه وبحثها لن يجدي نفعا، هو مُخبأ بين جدران صامتة مثله، لمياء ليست على استعداد لفراقه حتى وهي ترسم صورة في خيالها لأمه الحزينة.

تتفقد أشياءه بحسرة. تنام في غرفته لتنعم برائحة جسده على سريره.

تحتضن كتابه، لعبته، وملابسه.

تمنت لو أنها تستطيع إخبارها أنها لن تتركه وعليها التخلص من أشياءه فورا حتى لا تزيد حنينها إليه.

مرت سنوات، عاشا فيها معا دون أن يكتشف أحد أمره، هي وحيدة لا يأتي إليها أحد، ودودة مع الجيران لكنهم

جميعا يعلمون أنها لا تستقبل أحدا في بيتها فمجرد أن تدخل البيت تترك كل شيء خارجه.

رغم جسده النحيل، لكن شاربه بدأ يخط، وطوله فاق طولها، ربما آن أوان الفراق، لا تعلم إلى أين يذهب وكيف تخرج به من البناية وماذا يقول الناس عند رؤيته لكن لا مفر يجب أن يرحل.

قررت أن تخرج به ليلا حتى لا يراها أحدا وحتى إن رآها أحد فهي لن تعود به مجددا يمكنها خلق أي قصة.

سارا عدة شوارع انحرفا فيها يمينا ويسارا حتى يبتعدا عن البيت، توقفت ونظرت إليه قائلة:

- قف هنا وانتظرني.

ثم تركته وذهبت، لو كان طفل طبيعي لعرفت منه معلومات عن أهله أو لوصته أن يذهب إلى قسم الشرطة حتى يبحثوا عن أهله، لم تجد سوى تركه في الشارع حيث وجدته.

ظلت تفكر في طريق العودة هل ما فعلته صح أم خطأ، لن يظل طفلا غدا يكبر ويشتد عوده!! كان يجب عليها أن تفكر بهذا اليوم منذ اليوم الأول الذي التقت فيه به.

لكنه أيضا كان ونيسها الوحيد ليته كان فتاة لأصبح الأمر هينا أكثر.

وصلت إلى شقتها وما إن أغلقت الباب حتى سمعت طرقا عليه، فتحت لتجد الطفل الذي كان يلاحقها، يعود إليها مجددا ويرفض الحياة بدونها، لأول مرة منذ سنوات طويلة يتشبث بها أحد، اختلطت مشاعرها بين الفرح والحزن ومع ذلك فالطفل أصبح مشكلة حقيقية لابد لها من حل.

كانت تشعر بالأمان عندما كان طفلا فإن رآه أحد عن طريق الخطأ فهو طفل صغير لن يشك أحد بأمرها حتى وإن تعرف عليه أحدهم بأنه طفل مفقود من أهله فهي لم تفعل سوى الخير فأخذته وأكرمته في بيتها عوضا عن أن يصبح متشردا أو مجرما.

لكنه يكبر مع الأيام ولابد من الحذر، بدأت تعوده ألا يفارق غرفته إلا بإذنها، يأكل بها وينام بها ويجلس بها طوال الليل والنهار، تقف حدوده عند باب غرفته لا يتخطاها حتى أصبحت كل عالمه.

بمرور الأيام كبر أيمن وأصبح مراهقا، أصبح عمره ثمانية عشر عاما لا يعرف من الناس سواها لم يتحدث مع إنسان منذ عشرة أعوام ولم ير الشارع سوى من خلف نافذة غرفته.

العلاقة بينهما غريبة لا يستطيع تحديدها أو فهم شيء عنها سوى أنه لن يسمح لأحد بتعكير صفوها مهما كان، حتى لو تطلب الأمر قتله.

***

كاد مروان أن يقول شيئا لكنه سكت حتى لا تسأم من مقاطعته لها، شعرت هي بذلك فقالت له:

- ماذا تود أن تقول؟

قال:

- هل هذا يعني أنه من قتل الجد وحفيده بسبب ازعاجهما لها!!

قالت له:

- لا تتعجل

***

ذات يوم رآها تتألم من الصداع الناتج عن قلة نومها لم تفلح معها المسكنات كما أصابها الألم بتقلصات في المعدة وقيء، لازمت سريرها ليومين، وقف عاجزا عن فعل شيء لها مما أثار جنونه فارتكب حماقة.

عندما اقتربت الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل خرج من غرفته بينما كانت النافذة مفتوحة فرآه الجد وكان يحمل الطفل ويسير به في الشقة ليهدأ ويتوقف عن البكاء، ابتسما لبعضهما، وسأله الجد من هو وما هي صلة القرابة بينه وبين لمياء، لم يجب أيمن، دعاه الجد إلى منزله ليثرثر معه فلبى دعوته.

خرج أيمن من الشقة لأول مرة منذ أن حاولت لمياء إعادته إلى أسرته مرة أخرى، وارب الباب ودخل إلى الشقة المقابلة فتح له الجد بينما كان يحمل الرضيع دخل الشاب وأغلق الباب خلفه، سار الجد أمامه يدعوه للدخول.

فجأة جذب الشاب ذراعي الجد بقوة إلى الوراء فسقط الرضيع وشرع في البكاء لكنه لم يهتم ودفع الجد إلى داخل غرفته، وألقى به على السرير على وجهه وجلس فوق ظهره، أخرج حبل من جيبه قيد به يديه بإحكام ثم قلبه على ظهره ووضع وسادة على وجهه وضغط بكل قوته، أخذ الجد يقاوم بكل ما أوتي من قوة لكنه في النهاية استسلم وما إن توقف عن الحركة حتى تركه الشاب وخرج.

كان ينوي العودة من حيث أتى لكنه توقف عند سماع صراخ الرضيع، وعاد إلى الغرفة حيث ترك الوسادة، أتى بها وحمل الرضيع ووضعه على الأريكة وكتم أنفاسه بها وتركه

جثة هامدة ورحل.

***

صدم مروان من قسوته وجفاءه لكن ما خفف عنه فعلته الشنيعة مرضه والحياة التي عاشها وطفولته التي دمرتها لمياء.

تنهد في ضيق وقال:

- وهل صارحها أنه قتلهما؟

أجابت:

- نعم وتعجبت قليلا لكنها ابتسمت واحتضنته.

ذهل قائلا:

- احتضنته!؟ هل باركت قتله لهما من أجلها!!

قالت له:

- لم يكن هذا شعورها بالضبط، إنما فرحت أن هناك من يحبها ويهتم بأمرها ويفعل من أجلها شيء ما، بصرف النظر عن ماهية هذا الشيء.

تعجب قائلا:

- حتى ولو كان هذا الشيء قتل!!

قالت:

- نعم حتى لو كان هذا الشيء قتل.

الشعور بالاحتياج لا يتوقف عند الإنسان، تحتاج دائما لملء الفراغ بداخلك حتى ولو كان بطريقة خاطئة.

سألها: وماذا عن طارق؟

***

بعد اعتراف أيمن لها أدركت أنها تُخبأ قاتلًا، إن عثر عليه أحد فقد زادت الجرائم التي اقترفتها منذ أن وجدته جريمة جديدة، فقد اختطفته وخبئته وجعلته قاتلًا ربما يتهموها بتحريضه على ذلك أيضا.

هو من أنقذها من وحدتها.

وهو من قتل من أجلها.

هو يستحق الحماية.

لذلك طارق أصبح خطرا كبيرا عليهما، قررت أن تشركه في جزء من الحكاية وتخفي عنه الجزء الآخر ربما ذلك يشبع فضوله، عندما تكون جزء من الحكاية تشعر بفخر، تشعر بأهميتك فأنت تعرف ما لا يعرفه الآخرون، كانت تمني نفسها

أن يصل إليه هذا الشعور وينسى أمرها.

بعد ثلاثة أيام من زيارته لها طرقت بابه ليلا، عندما فتح الباب قالت:

- جئت لأحكي لك الحكاية

دعاها إلى الدخول وأغلق الباب.

جلست ثم سألته:

- إذا كنت تريد الحقيقة مني فعليك بقولها أيضا.

قال وهو يقدم لها بعض الحلوى المرصوصة في طبق فضي:

- ماذا تقصدين؟

تناولت الحلوى ووضع الطبق على الطاولة الصغيرة الموضوعة أمامهما ثم جلس، فقالت:

- تقول ماذا تعرف عن الغرفة؟

قال:

- حسنا هذا أمر بسيط إذا كان المقابل الحقيقة الكاملة لهذا الأمر، في البداية أحب أن أوضح لك أمرا، في الأيام الماضية أخذت إجازة من عملي أو بالأحرى من العملين فأنا أعمل

مندوب مبيعات نهارا ونادلا في مطعم ليلا، صار لي أكثر من عامين لم أحصل على إجازة، أنا أعمل أكثر من جميع زملائي من أجل توفير النقود لأحصل على شقة خاصة بي بعيدا عن بيتنا الذي أصبح سوقا فنحن سبعة أخوة نعيش في شقة صغيرة عدد غرفها اثنين فقط، لذلك أنا قبلت بهذه الشقة التي يصفها الناس بالمسكونة.

أنا أقول لك ذلك حتى تعلمي سبب شرائي لهذه الشقة وكي لا تخافين مني مثلما يفعل البعض.

قالت:

- أنا لا أخاف منك.

سألها:

- إذن لماذا تتجنبين الحديث معي؟

قالت: لأنك شاب وحيد وأنا فتاة وحيدة، هل فهمت قصدي؟

هز رأسه قائلا:

- نعم فهمت قصدك

سألته:

- ماذا تعرف عن هذه الغرفة؟

قال:

- لا أعرف الكثير أنا فقط رأيت خيالان في الشقة ذات يوم وتابعت الأمر وجدت أنه خيال لرجل ودائما ينتهي به المطاف إلى الغرفة التي أشرت إليها.

قالت:

- هذا كل شيء؟

قال:

- نعم.

ترددت قليلا ماذا تقول عن رجل يعيش معها في نفس الشقة والجميع يعلم أنها غير متزوجة وتعيش بمفردها.

شعر بحيرتها فقال:

- لا تترددي فقط قولي الحقيقة، هذه أمورك الخاصة وليس لأحد أن يتدخل بها ولكن إذا أردت تبرئة نفسك من الشبهات...

قاطعته قائلة:

- الشبهات!

أنا لا أفعل شيء خطأ هذا شاب مراهق وليس رجلا كما تظن وجدته عندما كان طفلا وربيته في بيتي.

سألها: إذا كان الأمر كذلك فهو فعل خير لماذا تخفيه عن الناس؟

ارتبكت قائلة:

- هذا ما حدث.

سألها:

- لكنك تقولين إنك وجدتيه طفلًا، فكيف لم يسمع عنه الجيران ألم يذهب إلى المدرسة أو ينزل إلى الشارع أو حتى يقف في الشرفة كيف يُخبأ كل هذه السنوات!؟

قالت:

- كان انطوائي ولا يحب اللعب ومستوى ذكاءه محدود ولم يفلح في التعليم.

فكر لدقائق وهو يرمقها بنظرات تحمل الريبة ثم قال:

- لا أصدق هذا الكلام، هذا أمر غير طبيعي.

قالت:

- ولماذا أكذب؟

قال:

- لا أعلم لكني أعتقد أنه لنفس السبب الذي جعلك تخفينه عن الجميع.

انفعلت، وقفت وقالت:

- أنا قلت ما لدي وإذا لم تصدق فهذا شأنك.

وقف بدوره وقال: أنا لست غبي أو ساذج حتى أصدق ما تقولينه، أنتِ تُخفي سر كبير .

لم ترد عليه واتجهت إلى الباب لتغادر البيت وأثناء سيرها قال:

- كما وصلت لسرك هذا، غدا أصل إلى السر الأكبر.

خرجت وصفقت الباب خلفها بقوة.

فتحت باب شقتها دخلت وأغلقته وهي شاردة تفكر ماذا يقصد أنه سيعرف السر الأكبر أيقصد لماذا أخفت أيمن عن الناس منذ أن كان طفل حتى اليوم أم يعرف أنه القاتل!!

الارتباك شل تفكيرها.

بعد أن هدأت حدثت نفسها بصوت عالٍ حتى أن أيمن سمعه أثناء ذهابه إلى الحمام، كان يجب التحدث عن مرضه

وأنه طفل غير طبيعي فإن تركته في الشارع ربما نال منه المتشردون، كان عليها حمايته من التشرد والجوع، وأنها بحثت عن أهله بقدر المستطاع ولم تعثر لهم على أثر، وخافت أن تفشي سرها أمام جيرانها فإن مدحوها اليوم فغدا عندما يصبح شابا يتهمونها في أخلاقها وربما يجبروها على تركه.

هذا هو التفسير المنطقي الذي يجعله يتوقف عن البحث خلفها، قررت أن تشرح له الأمر في أقرب فرصة.

لمحت أيمن يجلس في ركن ينظر إليها نظرات صامتة فهمت مغزاها، بدون قصد حرضته على قتل طارق .

وبقصد لم تثنيه عما يفكر به.

***

تراجعت عن طرق بابه وطرح التفسير الذي فكرت به، أيمن سيتكفل بالأمر عاجلا أم آجلا فقط يجب عليها أن تُهيئ له نفس الظروف التي مر بها عند قتل الجد وحفيده.

في يوم جمعة ليلا فتحت النوافذ التي تطل على بيت طارق وسمحت لأيمن بالخروج من غرفته، وقالت له أنها تشعر بالصداع القاتل وتحتاج إلى الراحة، ثم استطردت بطريقتها الخاصة:

- لا تفعل شيء في غيابي لا تفعل مثلما فعلت منذ شهور مع جارنا العجوز.

تذكر ما فعله وما سببه طارق لها من توتر الأيام الماضية، رأت في عينيه أنه وصل تماما لما أرادت فدخلت غرفتها وأغلقت الباب بهدوء.

أتت حيلتها بثمارها فقد رآه طارق يقف أمام النافذة كتمثال الشمع، شعر للتو أنه هو المراهق المخبئ منذ سنوات والمحجوب عن العالم، تعجب قليلا لما قد تسمح له بالظهور بعد هذه السنوات لكنه لم يتوقع مكرها.

راقبه لنصف ساعة ووجد أنها ليست بالبيت ففعل تماما مثلما فعل الجد ودعاه إلى بيته ولبى أيمن الدعوة، ظن طارق أن هذه فرصته لمعرفة كل شيء، ظن أنه وصل إلى طرف الحبل الذي يبحث عنه بينما هو يلف الحبل حول رقبته.

فتح الباب ودخل أيمن يخبئ في جيبه نسخة أخرى من الحبل الذي قيد به الجد، سار أمام طارق حتى دعاه إلى الجلوس فجلس، حاول طارق أن يتحدث إليه لكنه ظل صامتا، سأله إذا كان يريد كأس من العصير فأومأ برأسه، وقف طارق وسار خطوات معدودة ثم التف الحبل حول

رقبته في سرعة وشد عليه في قوة حتى لفظ انفاسه.

واجه نفس مصير سابقيه، طارق فتح قبره بيده فهو هددها أو هددهما بمعنى أدق بإفشاء سرهما.

***

قال مروان: لقد قتل للمرة الثالثة وبتحريض منها هذه المرة.

ثم استطرد متشككا: هل أنت لمياء؟!

ضحكت قائلة: كنت بالأسبوع الماضي تسألني إذا كنت واحدة من الثلاثة اللاتي في الحكاية الأولى والآن تسألني إذا كنت بطلة تلك الحكاية!!

تجاهل ردها وهمس كأنه يحدث نفسه:

-أم أنكن سفاحات وتتواصلن مع بعضكن بشكل ما!!

تجاهلت اتهامه لكن التوتر ظهر في صوتها وهي تقول:

- في المرة القادمة نكمل الحكاية.

هتف قائلا:

- أمازال هناك المزيد من الضحايا؟!

قالت:

- بالطبع وربما هناك من يقتل بينما نتحدث نحن الآن.

أنهت المحادثة وتركته في حيرة من أمره، هذه الحكاية تختلف عن سابقتها، هنا مراهق تحت رحمة فتاة مخبولة فرحة بما يفعله، تشعر باللذة لقتل الآخرين من أجلها وبتحريض منها، يجب الوصول إليهما سريعا.

(٨)

اتخذ قراره بالتدخل فورا في مجريات الأحداث تجاهل تحذيرها له بعدم التدخل، إذا كان عقابه عدم استكمال الحكاية فهو أمر هين إذا كان المقابل إنقاذ أرواح جديدة من قبضتهما وربما إنقاذ هؤلاء أنفسهم وإيداعهم مصحات نفسية.

خرج رامي من غرفته فجرا بجفون مثقلة بالنوم وفم يتثاءب، دخل إلى المطبخ وأحضر زجاجة ماء من الثلاجة وخرج إلى الصالة وهو يشرب بعضًا منها، وجد مروان يجلس على الأريكة ويبدو عليه القلق، نظراته شاردة ويفرك كفيه في توتر.

جلس بجواره متسائلا:

- ماذا بك؟

لم ينتبه إلا بعد أن أعاد عليه السؤال مرة أخرى بصوت أعلى فأجاب:

- أشعر أنني في ورطة.

قال رامي:

- والسبب محادثات منتصف الليل هل أنا على صواب؟

أجاب مروان:

- نعم أنت على صواب.

قال رامي:

- احك لي، ربما أستطيع مساعدتك.

قال مروان:

- حقا يجب أن أحكي ويشاركني أحد فيما أحمله على صدري فلم أعد أحتمل حمل هذا العبء بمفردي.

إلى أن أشرقت الشمس ظل يحكي لرامي الأمر بتفاصيله الدقيقة كما سمعه منها بالضبط، كما حكى له عن سفره إلى الفيوم الذي لم يسفر عن أي شيء.

رامي كان هادئًا لم يتفاعل مع الأمر كما توقع مروان، سمع وحلل حسب وجهة نظره:

- لماذا تظن أن كل ما يقال حقيقة؟

قال مروان:

- ربما يكون غير حقيقي وربما يكون حقيقي.

قال رامي:

- وإن كان غير حقيقي ماذا يكون الغرض منه؟

فكر مروان لدقيقة ثم قال:

- يريد أحدهم أن يسخر مني!

قال رامي:

- وربما يريد أن يشغلك عن عملك وتخلو له الساحة.

قال مروان:

- أتقصد كاتب ما؟

قال رامي:

- أو مالك لدار نشر يحقد على دار النشر التي تنشر معها.

هز مروان رأسه نافيا وقال:

- لا أعتقد ذلك

يبدو الأمر برمته غريبا وغير حقيقي ويراه كحكاية من حكايات أخيه التي يكتبها ويتسابق القراء لاقتنائها بينما يراها حكايات لن تزيد له سوى المتعة التي يمكن إيجادها في فيلم عربي يشاهده بدون مجهود، وإثارة الخيال الذي لا يطمح أن ينميه وبعض مفردات اللغة العربية الفصحى التي لن تفيده طالما يتحدث العامية.

قال مروان:

- أريد أن أذهب إلى الإسكندرية أشعر أن بإمكاني فعل شيء ما لأمنع ارتكاب المزيد من الجرائم.

وقف رامي يتأهب للعودة إلى النوم وقال مازحا وهو يتثاءب:

- اذهب أيها المحقق الله معك

تركه ودخل إلى غرفته وبدأ مروان في ترتيب الأمر في خياله، بعض الملابس يضعها في حقيبة سفره الصغيرة، وجبتان خفيفتان يعدهما قبل سفره يأكل إحدهما بينما الأخرى يتناولها أثناء السفر أو بعد وصوله إلى الإسكندرية، رحلة لن تزيد عن رحلة الفيوم في شيء، يبحث عن نزل بسعر زهيد ويبدأ رحلة بحثه لكنه بحاجة أولا إلى النوم بضع ساعات.

***

مرت أربعة ساعات، استيقظ إثر سماع أذان الظهر، أشعل سيجارة وجلس نصف ساعة على سريره يستمع إلى ضوضاء الشارع التي تتكون من أصوات مختلفة للبائعين المتجولين والمراهقين الذين لا يملون من لعب الكرة.

تذكر أن عليه الذهاب إلى الإسكندرية هبط حماسه قليلا ربما لشعوره بالخمول والرغبة في العودة إلى النوم، أشعل رامي حماسه عندما دخل غرفته قائلا:

- جيد أنك استيقظت الآن، منذ قليل تحدثت إلى ضابط صديق لي وحكيت له ما حكيته لي، تعجب قليلا لكنه أراد ألا يلوم نفسه مستقبلا إذا كان الأمر صحيحا لذلك تحدث إلى ضابط آخر زميل له في الإسكندرية وأعطاني رقم هاتفه حتى تتواصل معه ويساعدك.

فرح واختلطت فرحته بالدهشة، أطفأ سيجارته في طبق فخار موضوع على طاولة صغيرة بجانب سريره، وقف قائلا:

- لم أتوقع تحمسك للأمر!

قال رامي:

- أنا أيضا لا أريد أن ألوم نفسي على شيء مستقبلا.

مد يده بالورقة المكتوب بها رقم الهاتف، التقطها مروان ليقرأ رقم الهاتف واسم الضابط بأسفله (وليد زهران)

***

بدل ملابسه وخرج من بيته وبعد ساعة كان في بداية طريقه إلى الإسكندرية التي تحمل له ذكريات كثيرة وجميلة

ولا يذهب إليها إلا لمداعبة بحرها ومغازلة جوها المنعش، الآن يذهب إليها كمحقق كما قال رامي يبحث في شوارعها عن بيت يحمل بين طياته رائحة الدم لثلاثة أبرياء، ومخبولة ومريض هما من تسببا في ذلك.

ما إن وصل حتى اتصل بالضابط وليد وعرفه بنفسه فرحب به وطلب مقابلته في مقهى يختاره ليلا، شعر من نبرة صوته أنه لا يعرف ماذا يريد منه هو فقط يعرف أنه يريد خدمة ما.

جلس ليلا في المقهى ينتظر وليد الذي تأخر نصف ساعة عن الموعد، وجد شخص يقترب منه طويل القامة مفتول العضلات صاحب ملامح حادة قوية، كان ذلك وليد، قريب من الصورة التي رسمها عنه في خياله والتي استوحاها من صوته القوي.

حكى له الأمر منذ البداية عندما كان عائدا من الندوة الثقافية ووجد من تتصل به ليلا تطلب منه أن يستمع إليها، بدأ بقصة السيدة العجوز وحفيدتها، نظراته تشبه نظرات رامي عندما كان يستمع إلى الحكاية، لا يعتقد بالأمر، لم يؤمن أحد به بعد.

قال له:

- ولماذا أنت هنا لابد أن تكون في الفيوم.

قال مروان:

- ذهبت بالفعل ولم أصل إلى شيء.

قال وليد:

- إذن هناك أمر آخر ويتعلق بالإسكندرية.

قال مروان:

- نعم هناك جريمة أخرى حدثت هنا. وبدأ يقص عليه الحكاية الأخرى.

وبعد أن انتهي سأله وليد:

- هل قالت لك شيئا مميزا عن المكان الذي تعيش به لمياء، أقصد شيء مميز عن البناية أو الشقة؟

قال مروان:

- لم تحدد وصف للبناية سوى أنها من أربعة طوابق وكل طابق شقتين وشقة لمياء كانت مليئة بلوحاتها الفنية وأمام النافذة التي تقع بالصالة توجد غرفة أيمن.

نظرا لأنه حاول محاولة مشابهة في الفيوم وباءت بالفشل فبداخله يستبشر خيرا هذه المرة، الحكاية هذه مميزة

سنبحث عن بناية خالية تمت بها جريمتان إحداهما مزدوجة وتقطن بها فتاة بمفردها هكذا يظن الناس.

قال وليد: تذكرت تلك القضية.

هتف مروان فرحا:

- حقا!

تعجب وليد قائلا:

- لماذا فرحت هكذا؟

قال مروان:

- لأنني تأكدت أخيرا أنها ليست مجرد حكايات وهي جرائم حدثت بالفعل

صمت قليلا ثم قال:

- لكن كيف لا يعرف أحدا في الفيوم شيء عن جريمة الجدة أو حتى عن عجوز انتحرت لقد مكثت أربعة أيام وذهبت أماكن كثيرة وسألت كثيرا ولم يعرف أحدا شيء.

قال وليد:

- بالتأكيد لن تكفي أربعة أيام للبحث في محافظة بأكملها، على كل حال ربما أحتاج بعض الوقت لأبحث عن العنوان،

سأتصل بك فور العثور عليه.

وقفا يتصافحان ثم اتجه كل منهما إلى وجهته.

***

في كومة كبيرة من القضايا بدأ وليد البحث عن تلك القضية، تعاون معه اثنان من زملائه دون أن يفهما الغرض من البحث، أثناء البحث أخذ وليد يفكر إن كان الأمر صحيحا سوف يحصل بالتأكيد على رضا رؤسائه، هذا أمر يفرق معه كثيرا في ملفه الوظيفي.

بعد يومين وجد الملف واطلع عليه بتأنٍ، حاول التواصل مع وائل الضابط الذي كان يشك أن لمياء هي القاتلة لكنه قدم استقالته وسافر أخيرا وحقق أمله بالعيش في الخارج كما كان يتمنى منذ حصوله على الثانوية العامة، وقف أمام أبيه يخبره بأنه قد مد سلسال العائلة إلى كلية الشرطة كما أراد وأنه لن يوقف تقليدا مصريا أصيلا يقتضي أن ابن القاضي قاضي وابن الضابط ضابط، لكنه اكتفى من هذا الشرف ولا يريد المزيد منه ولا يريد توريثه لابنه، يريده حرا يختار مجال عمله بإرادته في بلد لا تعترف بشعار «أبناء العاملين».

***

اتصل بمروان وطلب منه الحضور في مكان ما، عندما حضر وصافح وليد سأله عن آخر الأخبار التي توصل إليها فأشار وليد إلى بناية تقع أمامهما مباشرة قائلا:

- هذه هي البناية.

نظر إليها مطولا يحاول حفظ تفاصيلها كاملة يريد وصفها بدقة في روايته، سيصف الأتربة التي تغطي النوافذ الخشبية واللون الباهت الذي أصاب جدرانها والباب الحديدي الأسود الذي يحرسها.

صعدا إلى البناية اتجها إلى الطابق الثاني حيث تقع شقة لمياء سأله وليد:

- أيهما الشقة؟

قال مروان:

- لا أدري لم تحدد، هل سنطرق الباب؟

أجاب وليد:

- بالطبع وإن لم نطرقه لماذا جئنا إلى هنا؟

اختار إحداهما وطرق بابها طويلا ولم يجب أحد ثم اتجه إلى الأخرى وطرق طويلا ولم يجب أحدا أيضا، نفخا الاثنان بضيق في آن واحد، سأل مروان:

- ماذا سنفعل الآن هل نذهب ونعود ليلا؟

قال وليد:

- انتظرني سأعود بعد دقائق

عاد حاملا زجاجتين من البلاستيك بهما عصير، أعطى مروان واحده بينما الأخرى كان قد فتحها بالفعل وبدأ يروي عطشه منها اندهش مروان قائلا:

- هل هذا وقته؟

أخرج وليد آلة حادة وبدأ يمزق الزجاجة بعد الانتهاء منها تماما، صنع منها فرخ بلاستيكي طواه بطريقة مميزة يعرفها جيدا ثم وقف ينظر إلى البابين مترددا لا يعرف أيهما يختار، فهم مروان ما يريده وليد

سأله سؤالا يعرف إجابته جيدا:

- هل ستقتحم الشقة؟

أجاب وليد وهو يتجه إلى أحد البابين الذي أختاره عشوائيا بعد أن طالت حيرته:

- حسي الأمني يقول إن هذه الشقق خالية.

قال مروان وهو يتبعه:

- هل اعتمدت على حسك الأمني هذا قبل ذلك أم أنها أول مرة؟

أخذ وليد يزج بقطعة البلاستيك بين الباب وإطاره الخارجي جذب الباب قليلا ففتح فورا، نظر إليه قائلا:

- هيا بنا نكتشف الأمر بأنفسنا

برغم شعوره بأن الشقة خالية لكنه أمسك بسلاحه تحسبا لما يمكن أن يحدث، ما إن دخلا عدة خطوات حتى ظهرت اللوحات الفنية التي ترسمها لمياء قال وليد:

- كنت قد ذكرت لي شيء عن لوحات فنية كثيرة أليس صحيح؟

قال مروان وهو يتفحص اللوحات:

- بلى

سحب وليد نفسا عميقا وقال:

- لقد حالفنا الحظ أن أختار الدخول أولا لهذه الشقة

نظر مروان إلى باب الغرفة التي تقع في المنتصف أمام النافذة قائلا:

- هذه غرفة أيمن هل تعتقد أنه بالداخل؟

قال وليد: لا أظن ذلك

فتح باب الغرفة بحذر ووجدها خالية فقال له:

- ألم أقل لك

فتشها وليد جيدا كما فتش الشقة كلها وعاونه مروان في ذلك، لم يعثرا على شيء، لم يجدا صورة لأحدهما أو ورقة رسمية من أي جهة أو حتى إيصال كهرباء أو غاز.

قال وليد وهو يتطلع إلى السقف قائلا:

- هذه الشقة مهجورة منذ فترة ليست بالقريبة وليست بالبعيدة هل ترى بيوت العنكبوت

قال مروان وهو يتطلع إلى السقف أيضا: كلامك صحيح.

نظرا نظرة أخيرة على المكان ثم خرجا وأغلقا الباب.

وقف وليد أسفل البناية مودعا مروان:

- كنت أود مساعدتك.

قال مروان:

- أنت بالفعل قدمت لي مساعدة كبيرة أنا الآن أعرف أنني أستمع إلى حكايات حقيقية، لكن ألا يمكننا فعل أي شيء ؟

قال وليد:

- للأسف لا يوجد جديد يحثنا على فتح القضية والتحقيق بها، شهادتك لن تؤخذ على محمل الجد إلا إن راقبت الشرطة هاتفك وسمعت وسجلت كل ما يقال ووصلت إلى عنوانها ثم القبض عليها، يجب عليك فعل ذلك إذا لم تكن تخاف من الاقتراب أكثر من اللازم.

قال مروان:

- الأمر يحتاج إلى تفكير

قال وليد:

- على كل حال أنا في خدمتك إن احتجت إلى شيء.

شكره مروان وصافحه بحرارة ممتنًا له على وقته ومجهوده ومعاونته له، افترق الاثنان مرة أخرى، عاد وليد إلى عمله بينما اتجه مروان إلى البحر جلس أمامه وبلل قدميه بماءه وهو يفكر فيما سيفعل.

خسر تكملة الحكاية ولم ينقذ أرواح جديدة كما كان يعتقد، يشغل باله كثيرا أين هما، ماذا يفعلان وماذا يخططان، توجد ضحية الآن لا تعرف أنها التالية كان بوده مساعدتها لكن عمرها انتهى.

عاد إلى النزل يلملم أشياءه ليرحل، فقد لفظته مدينته

الساحرة ولم تعطه ما يريد، ظل طوال الطريق يفكر ماذا يفعل أيستمع إلى نصيحة وليد ويبلغ الشرطة أم يستمع إلى بقية الحكاية؟

***

فتح مروان الباب ودخل واضعا حقيبته الصغيرة جانبا وجلس ينادي على رامي عندما وجد ضوء غرفته مشتعلا، جاء رامي وجلس بجواره وقال مازحا:

- سبع أم ضبع؟

قال مروان:

- لا هذا ولا ذاك.

قال رامي:

- ماذا تقصد؟

أشعل سيجارته بعد أن التقط أنفاسه بعد صعوده درجات السلم:

- تأكدنا أن ما تحكيه صحيحا لكنا لم نجد للأشخاص الذين تحكي عنهم أثرا كالعادة.

قال رامي: وأيضا لن تكمل لك الحكاية بعد أن تدخلت في

الأحداث للمرة الثانية.

قال مروان:

- أنا أيضا فكرت في ذلك ستبدأ حكاية جديدة وننسى الحكاية السابقة كما نسينا ليلى، ثم نبدأ البحث من جديد وهكذا.

رفع رامي حاجبيه وقال مندهشا:

- كم حكاية تملكها هذه الملعونة وكأنها بئر عميق يأتي الآخرون ليرمون به أسرارهم.

قال مروان: اقترح عليّ الضابط وليد أن أبلغ الشرطة وأطلب منهم تتبع المحادثات الهاتفية بيني وبينها لكني لا أود فعل ذلك أعتقد أنني سأقحم نفسي في متاهات.

قال رامي:

- أنا أيضا أعتقد ذلك، أنت كاتب يمكنك الاستفادة من تجارب الآخرين وسيرة حياتهم دون أن تتسبب في مشاكل لنفسك.

تنفس الصعداء أراد أن يشاركه أحدا القرار، أراد إيجاد أحدا لإلقاء اللوم عليه في الوقت المناسب، يصعب عليه تحمل مسؤولية القرار وحده، يقتل فردا آخر وآخر وهو يختبئ

تحت عباءتها يستمع ويكتب، يفند وينتقد، يضيف أحداث ويحذف أخرى لا تتسق مع الحبكة التي يصنعها، يريد فعل ذلك بضمير مرتاح وذهن صافي ورائق.

ظهرت أنانية لم يعهدها في نفسه من قبل، تخطى الثلاثين من عمره وها هي الحياة تمنحه معرفة صفة جديدة فيه.

قبل مباركة رامي بالسكوت، كان يشعر أنه مقيدُ، وكأن حبل سميك يغلف جسده بالكامل، يمنع عن خلاياه التنفس ويقتلها ببطء لكنه الآن أجهز على ضميره وأخذ يردد أنه كاتب كل ما يهمه كشف الحقائق عن الجرائم وسردها بأسلوبه الساحر في كتابه في رواية واقعية وها هي تكشف بدون أدنى مجهود منه!!

***

بالتأكيد ستعرف بما فعله كما عرفت المرة السابقة، جعلته يتلفت يمينا ويسارا أينما ذهب، ينعطف فجأة في شوارع جانبية ويدير رأسه بهدوء إلى الخلف وهو يستند على الحائط كأنه هارب مطارد تبحث عنه الشرطة أو مافيا كما في الأفلام الأجنبية.

لذلك قرر الاعتذار وأعد بعض الجمل التي تمرن على إلقائها كأنه طفل صغير أخطأ ويريد بكلمات طيبة أن يمحو أثر ما

فعله ويستجدي عطفها كي تسامحه، يقسم أنه لن يتدخل مرة أخرى في الأحداث، لن يبرح مكانه حتى تنتهي حكاية لمياء وأيمن، سيعترف بسخافة تصرفاته وسذاجة تفكيره، ويتعهد أن يظل المستمع المطيع الصامت، حتى مقاطعتها في الحديث لن يفعلها.

ارتفع رنين الهاتف باتصالها، لم تلق التحية بل سألته:

- هل أنت على استعداد لتلقي الحكاية الثالثة؟

علمت كالعادة، أمطرها بوابل من التوسلات مصاحبا بنبرة صوت تحمل كل الأسف مما فعله، صمتت إلى أن ينهي حديثه، تعطيه فرصة لتطبيق كل ما تمرن من أجله تعلم أنه إن لم يتوصل لشيء في الإسكندرية، لن يسمح له فضوله بترك هذه الحكاية معلقة في الهواء ونهايتها مفتوحة كسابقتها ربما يعاقبه ويمنع عنه الوحي والإلهام لاستكمالها، سيجبره على محاولة الاعتذار لعلها تجدي نفعا.

لكنها لم تقبل كل ما قاله.

قالت بهدوء:

- كان يجب عليك احترام قواعد اللعبة.

قال: لعبة لفظ لا يليق، خاصة أن هناك ضحايا حقيقيون

وليسوا دُمى في لعبة!!

قالت:

- حديثي معك هو اللعبة، أنا قررت أن أحكي ففعلت وسألتك ألا تدخل ووعدتني فلماذا كسرت قوانين اللعبة؟

قال:

- كنت أعتقد أنني أستطيع فعل شيء.

قالت بحزم: انس أمرهما أنا أتيت لك بحكاية جديدة.

قال بفتور: هذا أمر سيء، لقد قل حماسي كثيرا بعدم معرفة الحكاية كاملة.

قالت:

- لماذا تصر على معرفة نهاية الحكاية ومصير أبطالها ألا يكفيك معرفة جزء منها؟

قال بإصرار:

- نعم لا يكفيني.

قالت:

- فضولك قاتل أعدك إن لم تتدخل في هذه الحكاية ستعرف نهاية الحكايتين السابقتين.

صمت فاستطردت:

- صمتك يعني أنك وافقت لكن تذكر أنه إذا حدث العكس وتدخلت أيضا لا تلومن إلا نفسك.

***

(٩)

دخل بخطوات وئيدة تملأها الثقة، تشعر بالهيبة والوقار عندما تراه يدخل إلى البناية التي تقع بها شركاته، يزين الشعر الأبيض رأسه ويخالطه قليلا من السواد، يرتدي بدلة ذات ذوق راقي وثمن باهظ، النظارة الشمسية المستوردة من الخارج تستقر على وجهه ذي الملامح الجذابة التي احتفظ بها حتى بلغ الخمسين من عمره.

رحيم يهز رأسه تحية منه لكل موظف يقابله أثناء صعوده إلى مكتبه، يرفض التبسط معهم والقاء التحية ومصافحتهم ويرفض أيضا التكبر عليهم والتظاهر بعدم رؤيتهم فيكتفي بهز رأسه ونظرة احترام.

تعرض في الآونة الأخيرة لهزة بسيطة في سوق العمل أفقدته توازنه بعض الشيء وقللت من ثقته بنفسه رغم أن الآخرين رأوا أن الأمر لم يتعد كونه شيء طبيعي يحدث دائما في مجالات العمل المختلفة.

حاوط نفسه بابنته الوحيدة وبصديقه، طلب منهما أن يدرسا معه مشروعا جديدا ليسحب البساط من تحت أقدام المنافسين، ربما ترى المشروع أمرا عاديا لرجل أعمال يريد أن يزيد استثماراته، لكنه في الحقيقة أراد إظهار قوته

لمنافسيه وأنه لم ولن يهتز إنه الرائد في مجال عمله.

شعرت ابنته أن الأوان قد حان لمعرفة كل شيء عن شركات أبيها رغم أن البداية ساخنة وما أسنده إليها لا يعد سهلا بجوار معرفتها الضئيلة جدا عن أعماله والتي اكتسبتها من حديثه فقط وليس لها أي مصادر أخرى.

هي الابنة الوحيدة له هي الوريث الأوحد لكل هذه الإمبراطورية، كان يجب عليها التدريب في الإجازات الصيفية عندما كانت تدرس في الجامعة حتى تتمكن الآن من الوقوف على أرض صلبة بدلا من التخبط الذي شعرت به وهي تجلس أول يوم على مكتب فخم مزين بأوراق لا تفهم فيها شيئا.

الخطأ لا يطالها وحدها بل هو أبيها الذي أراد لها أن تنعم بمراهقتها كاملة، أن تخرج للتنزه والتسوق وتقيم الحفلات، لم يرد لها أن تخرج من ضغط الدراسة والامتحانات لتدخل في ضغط العمل، أراد تعويضها عن فقدان أمها في وقت مبكر بإعطائها كل شيء في وقته، أراد أن يضع لكل وقت الأذان الخاص به.

***

سأل مروان عبر الهاتف بحده:

- هل تتعمدين عدم ذكر اسم الفتاة؟

ضحكت وهي تجيب:

- لا أنت فقط تبحث عني في كل حكاية، على كل حال اسمها جميلة

***

بدأت تنتظم في العمل وتحاول بكل جهدها التفقه فيه، ساعدها في ذلك أحمد صديق أبيها وشريكه الآن في المشروع الجديد، شرح لها كيفية دراسته والتغلب على نقاط ضعفه، اقترب منها كثيرا أثناء عملهما وعرف عنها صفات طمأنته أنها مناسبة لأدهم ابنه، وعرف أن عالمها محدود بجانب عالم أدهم اللامحدود.

رتب لهما لقاء في مكتبه، دعا رحيم وجميلة إلى اجتماع لعرض المستجدات التي طرأت على المشروع ودعا أدهم للحضور في ذات الموعد دون أن يعرف السبب.

أدهم أيضا يعاون والده في إدارة شركاته، نشيط وطموح وسيم وقوي البنية يمكنه إنجاز عمل أكثر من فرد في آن واحد لذلك عندما يختفي كثيرا لا يستطيع أبيه لومه، يسافر فجأة ويعود فجأة، لا يقصر في عمله لكنه يريده أكثر رزانة وليس هناك أنسب من جميلة.

طرق الباب بينما الجميع منهمك في مناقشة المشروع، حتى أحمد الذي خطط لهذه المقابلة نسي الأمر ووضع كل تفكيره بالمناقشة في العمل حتى أنه أذن له بالدخول ناسيا أنه الطارق.

دخل أدهم بخطوات واسعة ونشاط متقد، يتسلل عطره النفاذ إليهم يسبقه بخطوة ويصبح في أوجه عندما أقترب منهم، قال مبتسما:

- مساء الخير

رد الجميع عليه التحية ثم قال رحيم وهو يقف لمصافحته:

- لم أراك منذ زمن هل تتذكرني؟

صافحه أدهم قائلا:

- بالطبع أتذكرك سيد رحيم وسعدت برؤيتك مجددا

قال رحيم مشيرا إلى جميلة:

- ابنتي جميلة

اتسعت ابتسامته وهو يصافحها قائلا:

- مرحبا لازلت أتذكرك لقد ألتقينا أكثر من مرة في الصغر

بادلته الابتسامة وهي تصافحه قائلة:

- مرحبا بك، أنا أيضا أتذكرك وأعتقد أنني أكبرك بخمسة أعوام

قال:

- أنا أيضا أعتقد ذلك.

جلس أدهم فتلاشى الحديث عن المشروع وتحول الاجتماع إلى جلسة سمر تحدث فيها الأطراف عن ذكرياتهم وبعض الأمور الطريفة، ثم بدأ كل أثنين الانخراط في حديث جانبي، فانزوى أحمد برحيم شارحا له بعض الأمور الإدارية التي تتعلق بمشاركتهما الجديدة، وانزوى أدهم بجميلة يتذكران مواقفهما وأفعالهما في الصغر، لاحظ أحمد انسجام بين أدهم وجميلة كان ينظر إليهما بين الحين والآخر ويدعو أن يتم الأمر على خير كما خطط له.

انجذب أدهم لجميلة منذ الوهلة الأولى، الجمال المصري الفرعوني الذي يعشقه، العينان الواسعتان السوداوان والأنف الدقيق والشفاه الممتلئة، لوحة فرعونية مستوحاة من عصور أجداده يزينها لون بشرتها الخمري والشعر الأسود الناعم المنسدل على كتفيها، سرقه الوقت ولم ينتبه إلا عندما أراد أحمد أن يحبك الأمر حتى لا ينكشف.

قال أحمد مقاطعا حديثهما:

- قلت لك أن تمر علي حتى تشاركنا الرأي في هذا المشروع

انتبه أدهم إلى الوقت فنظر إلى ساعة يده وهب واقفا وقال:

- أعتذر يا أبي يمكننا تأجيل الأمر بضعة أيام عندما أعود

قال أحمد بتأفف:

- تسافر فجأة كالعادة، حمدا لله أنك تعمل في شركة أبيك وإلا ماكنت تحصل على وظيفة أبدا

هم أدهم أن يعيد عليه ما يقوله كل مرة وأنه يعوض ما يفوته ويعمل بجد وتعب ولم يقصر يوما في عمله لكن جميلة قالت:

- إلى أين؟

قال بحماس:

- إلى جبل موسى وسانت كاترين

قالت:

- مدهش وهل زرت المكان من قبل؟

قال: لا هذه أول مرة

قالت:

- أتحب المغامرات أم أنك تريد تغييرا فقط

قال أحمد بضيق:

- يحب المغامرات وكم من مشاكل جلبها لنا بتهوره

نظر أدهم إليها قائلا:

- وهل هذه مغامرة هذه مجرد رحلة

ثم نظر إلى أحمد معاتبا:

- هذا ليس تهورا يا أبي ما يسعدك يختلف عما يسعدني هذا فقط كل شيء

قال أحمد:

- إذا حسبت أن هذه رحلة فماذا عن ...

قاطعه أدهم ضاحكا:

- لا داعي لذكر ذلك الآن

قال رحيم:

- يجب أن تدرس خطواتك جيدا والتأني في أفعالك

لم يعلق أدهم ونظر إلى جميلة قائلا:

- أتحبي أن تأتي معنا نحن مجموعة كبيرة من الشباب والفتيات

بدا على وجهها خوف وتردد قائلة:

- أنا؟ لا أنا لا أحب الرحلات المفاجأة خاصة وأنك لم تجربها من قبل لن أشعر بالأمان

قال لها أدهم: ليس هناك أمتع من الخوض في المجهول، عندما تخوضين تجربة لأول مرة خاصة وأنتِ لا تعرفين نتائجها تشعرين بشعور الطفل الذي بدأ يمشي بمفرده بعد أن كان يحبي على الأرض، شعور ممتع حقا.

بدأ تأثيره عليها منذ هذه اللحظة، يمتلك طريقة خاصة مقنعة وجذابة ملأتها بالرغبة في أقل من دقيقة، صمت الجميع ونظرت جميلة إلى أبيها فرأى في عينيها رغبة في السفر لا يعرف سببها فهو يعرفها جيدا لا تخطو خطوات غير محسوبة، قال لها: هل تودين الذهاب؟

انجذبت لأدهم تريد مرافقته حتى وإن كان ما تفعله ضد طبيعتها أرادت مشاركته هوايته، كذبت قائلة:

- أريد خوض التجربة.

يعلم أنها تكذب ولا يعلم السبب لكنه لا يستطيع أن يرفض

طلبها فوافق، هبت واقفة واستأذنت للذهاب إلى البيت لتعد حقيبتها حيث لم يتبق على موعد السفر سوى بضع ساعات كما قال أدهم.

***

رحلة شاقة عليها ولم يهون عليها الأمر سوى مرافقة أدهم، الظلام دامس أثناء صعودهم المدقات الجبلية لكن حماس أدهم أثناء حديثه عن لحظة شروق الشمس التي تراها من أعلى الجبل يهون عليها كثيرا.

ألتوى كاحلها فتولى أمرها وربطه برباط ضاغط، شعرت بشد عضلي فمسح على ساقها بمرهم خاص، لم تتحمل انخفاض درجة الحرارة وأصيبت بالسخونة لكنه دائما كان حاضر بحقيبة الإسعافات الأولية التي يحضرها معه دائما في كل رحلاته.

عادت من الرحلة سعيدة باهتمام أدهم بها وبالتقارب الذي حدث بينهما، ممتنة للإرهاق الذي لازمها بعد العودة وجاء به إليها كي يطمئن عليها فصرح بحبه وعرض عليها الزواج.

تعلم أنه تواقا شديدا لكل ما هو غريب، الرحلة التي بدت لها مغامرة كانت بالنسبة له رحلة عادية، يعشق اكتشاف كل ما هو جديد، لا يعبأ كيف تكون النتائج، إن كانت سلبية فهو

اكتسب خبرة جديدة وإن كانت إيجابية تكون مصدر فخره بين أقرانه، يسعى دائما إلى الاختلاف، يكره الروتين، يبحث عن أي شيء يجعل يومه يختلف عن الأمس، يفتش عن عنصر يقلب يومه رأسا على عقب ولا يعبئ بالعواقب.

وجدته نقيضها في بعض الصفات، تميل إلى التقليدي، لا تجرب شيء جديد إلا بعد سماع رأي الآخرين عنه، لا تتحمل فكرة أن تفعل شيء ولا يأتي بنتيجة إيجابية، لا تحب الخروج عن المألوف.

بعد الخطبة كان يفاجئها دائما بأماكن جديدة أو مغامرات ويعطيها الأمان عندما يكذب مدعيا أنه خاض هذه المغامرة سابقا ولم يكن كذلك، حظه كان جيد بأن تأتي مفاجأته ومغامراته بنتيجة إيجابية معها.

كان بالنسبة لها الرجل الخارق الذي يعلم كل شيء.

يجذبها ويخيفها في آن واحد أنه لا يعرف معنى الخوف يقدم على تجربة كل شيء مهما كان خطرا، الامر يبدو جيد للأغراب لكنه سيء إذا كان يتعلق بمن نحب، قلبها بين يدي رجل يعشق المجازفة مما جعله يدق بعنف إذا طال رنين الهاتف وهو لا يجيب.

لم يستطع رحيم رفض الخطبة، لكنه كثيرا كان ينصحه

بالتروي وإحكام عقله قبل الإقدام على أي فعل من تلك الأفعال التي يسميها طائشة، كان أحيانا يهدده بفسخ الخطبة وأحيانا أخرى يتحدث إليه بلهجه أقرب إلى الرجاء من أجل ابنته، لكن أدهم لم يكن يبال أبدا.

ذات يوم كان يقف معها في بلكونة غرفتها بفيلا والدها وقال لها:

- أتعلمين! أحيانا أشعر أن أباكي يعاملني كمجنون.

ضحكت قائلة: وأنت بالفعل مجنون يا حبيبي

بدى الضيق عليه وهو يقول في صرامة:

- لم أكن أعلم أن هذا رأيك أيضا.

وضعت أطراف أصابعها على وجهه وقالت برقه:

- لا يا حبيبي أنت لست مجنون فقط أنت مختلف في طباعك عنا

قال:

- عنا؟ إذا أنت معه في اتجاه وأنا في اتجاه آخر

اقتربت من شفتيه في محاولة لامتصاص غضبه وقالت:

- أنا معك أنت

اقترب قليلا ثم توقف فجأة وعيناه مثبته إلى الأسفل، سألته:

- ماذا بك؟

أجاب:

- هذا الرجل

نظرت حيث ينظر وبلا مبالاة سألته:

- ماذا عنه؟

لمعت عيناه من الفضول وقال:

- كلما جئت إليك لم أراه إلا ليلا

قالت:

- وماذا يعني هذا؟

قال:

- قضينا النهار معا عدة مرات ولم ألمحه إلا ليلا

قالت بنفاذ صبر:

- الجميع يعملون نهارا

قال:

- لكني لم أراه يخرج من الفيلا نهارا أبدا

أعتقد أنه يبقى في الفيلا ليلا ونهارا لكنه لا يظهر إلا ليلا فقط

قالت بغضب وعلا صوتها:

- ليس لنا شأن به، يعمل صباحا أو مساء أو لا يعمل أبدا، ما شأننا به!؟

سألها: ماذا تعرفين عنه؟

قالت بضيق:

- أعتقد أنه في الثلاثين من عمره، كما ترى ملامحه حادة ملابسه بسيطة، ليس له اختلاط بأحد، دائما يجلس بمفرده، حاول الكثيرون أن يتقربوا إليه لكنه صد بابه في وجههم جميعا، والجميع هنا أحترم قراره ولم يعد أحدا يتحدث معه إطلاقا.

قال:

- أنتِ تثيري فضولي أكثر بكلامك هذا

صاحت به مرة أخرى:

- أدهم هذا الرجل لا يعنينا في شيء، كف عن فضولك هذا

قال بحذر:

- اخفضي صوتك لا تلفتي انتباهه إلينا إلى أن نعرف قصته.

خبطت الأرض بقدمها غيظا وتركته وهبطت إلى الأسفل ثم أرسلت إليه الخادمة تبلغه بحلول وقت العشاء.

جلس لتناول العشاء معها وأبيها، وساد الصمت على غير العادة ، نظر والدها إليهما متعجبا لكنه لم يسأل ربما بداخله يبارك الخصام بينهما، غمز أدهم لها وأرسل قبلة خفيه لم يلحظها أبوها، ابتسمت وعلمت أن قبلته بمثابة اعتذار فقبلته على الفور.

أوصلته إلى باب الفيلا وودعته بابتسامة عريضة وصافحته في حرارة، أمطرها ببعض كلمات الغزل كأنه يعتذر عما بدر منه، اقترب قليلا لامس خدها بشفتيه فاحمرت وجنتيها وارتعشت شفتاها وانسحبت روحها.

ظلت واقفة إلى أن ركب سيارته وذهب، عادت إلى الداخل فوجدت رحيم يبدو قلقا، الفضول يملأ رأسه يريد معرفة ما إذا كان أدهم يزعجها أم لا، دعاها إلى الجلوس بجواره على الأريكة في غرفة المعيشة وسألها:

- لماذا كنت غاضبة عندما هبطت من الأعلى؟

ارتبكت قائلة:

- لا شيء

سألها بطريقة أخرى:

- هل يزعجك أدهم في شيء؟

نفت نفي قاطع جعله يصمت بعدها:

- لا. لم يفعل شيء يزعجني أبدا

حولت دفة الموضوع سريعا قائلة:

- أبي هل حاولت من قبل التحدث مع جارنا هذا الرجل غريب الأطوار

حدجها بنظرة طويلة وقال:

- هل علمك الفضول أيضا

قالت: أنا فقط اسأل

قال:

- هو جارنا منذ أكثر من خمسة عشر عاما فلماذا تسألين الآن؟

تصنعت الضيق قائلة:

- مجرد سؤال

شعر بضيقها فأجاب مضطرا:

- ذات يوم كنت في الحديقة أهتم ببعض الورود التي أزرعها بنفسي وكانت ملاصقة لسور حديقته فألقيت عليه التحية، نظر إلى كأنه ينظر في الفراغ لم تكن لنظراته معنى شعرت بالحرج فاعتذرت على شيء لم أفعله ولم افهمه ومنذ ذلك اليوم وأنا أتجنبه تماما.

قالت:

- أعتقد أنه يعيش بمفرده.

قال:

- نعم هو كذلك

سألته:

- هل سمعت شيئا عنه من الجيران؟

تأكد أنها أصبحت مثل أدهم فقال محذرا إياها:

- لا تحاولي الاقتراب منه أو السماح لأحد بالخوض في مغامرة جديدة

فهمت ما يرمي إليه لكنها تجاهلته قائلة:

- ولماذا أقترب منه فقط لفت نظري أنه لا يظهر إلا ليلا

وقف وقال:

- هو كذلك منذ سنين لكنك لم تلاحظين ذلك لأنك دائما تعتني بشئونك فقط أو كنت كذلك، تصبحين على خير

صعد إلى غرفة نومه، ظلت مكانها تفكر في حديثه محاولة إقناع نفسها أنه يبالغ، الفضول يمتلك الجميع وليس أدهم فقط كما يظن، من منا لا يأتيه الفضول عندما يرى شخصا غريبا أو حادثة حدثت أمامه أو ربما ما يدعوه للفضول أنه يريد معرفة كل شيء عن شخص ما حتى وإن لم يفده ذلك في شيء.

***

في اليوم التالي استيقظت على رنين الهاتف يعلن عن حبيب عاشق لا يتحمل الفراق أكثر من ذلك، يصف بصوت حنون اشتياقه ويطلب في رقة مقابلة يجدد بها شوقه، لم تستطع الرفض

قابلت الحنين بالحنين.

طلبت منه ساعة واحدة تعد نفسها للذهاب معه أينما يريد لكنه فاجئها قائلا:

- ما رأيك إن تناولنا الغذاء معا عندك في الفيلا؟

عدلت جلستها وأسندت ظهرها إلى ظهر السرير قائلة في حيرة:

- لا مانع أنا في انتظارك

تعجبت قليلا من طلبه هذا، يحب التنزه كثيرا وتعودت أن يصاحب طلبه المفاجئ باللقاء بنزهة لمكان جديد لا تعرفه، لم تطل التفكير في الأمر نهضت من السرير وهي تنادي على الخادمة لتعطيها بعض التعليمات لغذاء اليوم وصنع بعض الكعكات المنزلية التي يحبها أدهم.

زينت وجهها بألوان فاتحه، وتركت لشعرها العنان لينسدل على كتفيها، ارتدت فستان وردي اللون قصير وحذاء أسود ذو كعب عالي رفيع لتظهر ملائمة لقامته الطويلة.

اتجهت إلى النافذة عندما سمعت صوت محرك سيارته التي باتت تعرفه جيدا، ابتسمت وهي تلوح له عبر النافذة، بادلها الابتسامة ملوحا لها.

وجدته توقف عن السير وهو ينظر إلى الفيلا المجاورة التي يقطن بها الرجل، ذابت ابتسامتها ودار كلام أبيها في رأسها وتحذيره لها من أفعال أدهم رغم أن كلامه كان مستتر لكن معناه كان واضحا جدا.

هبط حماسها مع هبوطها الدرج إلى الأسفل، حاولت رسم ابتسامة طفيفة رغم ما يحمله عقلها من أفكار وتساؤلات، صافحته فقبلها قبلة شعرت بحرارتها على خدها وهدأت من تخبطها الداخلي الذي لم يشعر به.

نادت على الخادمة فجاءت سريعا، سألتها:

- متى يكون الغذاء جاهز؟

أجابتها:

- نصف ساعة

أذنت لها بالانصراف، وسارت بجواره إلى الصالون وجلسا متقاربين، قالت له:

- كيف كان عملك اليوم؟

أجاب:

- جيد

قالت بدلال في محاولة منها لإزاحة الشك عن عقلها:

- هل اشتقت إلى بهذه السرعة لقد كنا معا حتى منتصف الليل؟

قال:

- أنا دائما أشتاق إليك، انتهزت فرصة قلة العمل اليوم فأنجزته سريعا لأقضي بقية اليوم معك

تضاربت أحاسيسها تشعر بصدقه لكن هناك شيء خفي لا يريحها ولا تعرف مصدره، هناك شعلة ذات ضوء ضعيف تختفي في أعماقها لا تدري متى يشتد ضوؤها ويقوى مشيرا لهذا الشيء الخفي.

تناولا الغذاء وتحدثا عن مشاريعهما المستقبلية، بيت الزوجية وتأثيثه، عن ليلة العمر وتحديد مكان الزفاف وموعده، شرطت أن تستمر في العمل مع والدها ولم يعارض بشرط أن تملأ له البيت بالأطفال.

بدأ ضوء النهار في الانسحاب وزحف الظلام ليبدأ في الانتشار رويدا رويدا وتزامن ذلك مع التراجع في الاهتمام بجميلة وبدأ الاهتمام بشخص آخر.

سألها:

- ما رأيك أن نخرج قليلا

أجابت في حماس:

- إلى أين أهو مكان جديد؟

قال:

- لم أقصد ذلك بل أقصد نخرج نسير في الشارع قليلا أو الشوارع المحيطة

تعجبت وقالت:

- ولماذا نسير في الشوارع؟

تلعثم قليلا وقال:

- لو تحبين أن نركب السيارة لا مانع

قالت:

- نركب السيارة وندور بها في الشوارع المحيطة؟

قال: أردت فقط التغيير لكن إذا لم ترغبين في ذلك لا مانع لدي يمكننا الجلوس ومشاهدة التلفاز

شكت في شيء ما فطاوعته فيما يريد للتأكد منه، قالت:

- لا داعي للسيارة دعنا نسير على قدمينا أفضل

خرجا من باب الحديقة سألته في شك:

- نسير يمينا أم يسارا

قال وهو يمسك يدها ويجذبها نحوه:

- يمينا

كما توقعت يريد أن يسير أمام فيلا جارها الذي شغل باله وسحبه منها بمجرد حلول الظلام حيث لا يظهر إلا عندما يرمي الليل ظلاله السوداء على السماء.

بدأ يسير ببطء أمام الفيلا يفحصها جيدا- وأجبرها على ذلك-تتطلع جميلة إلى تفاصيل الشارع في ملل، تراقب أثر إطارات السيارات على الأسفلت، تتأمل الأشجار وكيف هي مشذبة بعناية، تتبع قطة بعينيها إلى أن تنعطف في شارع جانبي بحثا عن الطعام في سلة المهملات.

بينما أدهم يتطلع إلى الفيلا جيدا فيرى معمارها يشبه فيلا جميلة، تتكون من طابقين لكنها تحتاج إلى طلاء جديد بألوان ترابية جذابة تضفي عليها مزيد من الرقي، ترك خياله يرسمها من الداخل فرسمها مثل فيلا جميلة، تحمل نفس الأناقة والترتيب، يوجد في بهو الفيلا صالون عريق فرنسي، الحوائط مزينة بلوحات فنية تم شرائها من مزاد علني للتحف الفنية بأغلى من ثمنها ثلاثة أضعاف لجمالها وندرتها.

الحديقة أيضا تتشابه في تنسيقها بحديقة جميلة رغم أن صاحبها لا يملك عامل يعتني بها، يبدو أنه بارع في الاعتناء بها ولو أن ذلك لا يتفق مع إهماله الدائم لمظهره.

بداخل الحديقة وبجوار السور ذو العمدان الحديدة المقابل للرصيف بيت صغير خشبي لا يبدو أنه بيت كلب، لا يشبه

تصميمه بيت الكلاب المتعارف عليه، هو بيت كبير جدا على كلب، صغير على إنسان أيضا.

ترك يد جميلة واقترب منه قليلا ليرى ما بداخله، ظهر الرجل في وجهه فجأة أفزعه، لا يدري من أين ظهر، ملامحه مرعبة عند الاقتراب منه، تراجع خطوات إلى الوراء ودعس بقدمه قدم جميلة وكاد أن يختل توازنها لكنه أمسك بها، ابتسم الرجل بزاوية فمه ساخرا منهما وصاحبت ابتسامته عينان ثابتتان لا تبدو فيهما سوى الشماتة.

لم يتفوه أو يعاتبه على تجسسه عليه كأنه أعتاد من الجميع أن يفعلون هذا، اكتفى بابتسامته الصفراء ونظراته القوية واستدار متجها إلى الداخل في خطوات ثابتة بشكل غريب، يبدو في مشيته كإنسان آلي.

التفت أدهم خلفه لم يجد جميلة ركضت إلى الفيلا، لم ينتبه لطقطقة الكعب على الأرض، لم يشعر بحركتها وهي تبتعد مسرعة، كان يراقب الرجل بكل حواسه.

لحق بها عند الباب قبل دخولها وقال بندم حقيقي:

- أعتذر منك لم أقصد أن يحدث ذلك

قالت غاضبة:

- بلى تقصد، تركت عملك وجئت إلى هنا من أجله وليس من أجلي.

أمسك بيدها وقبلها قبلة حارة طويلة أوصلت إليه أسفه وندمه الحقيقي على فعلته، قال:

- بلى صدقيني، جئت من أجلك لكنه قفز أمام عقلي بمجرد حلول الليل وكأن وجودي هنا والظلام عندما يجتمعان أتذكره على الفور، آسف مرة أخرى.

داعب شعرها ووجنتيها، قبل رأسها في حنان، سامحته لكنها اشترطت عليه ألا يأتي إليها إلا نهارا، وافق على مضض وهو يفكر كيف يحكم زمام فضوله وقد ارتبط مجيئه لاإراديا إلى هنا برؤيته، تماما مثلما يرتبط برؤية جميلة.

***

مر شهر لا يأتي أدهم إلا في أجازة نهاية الأسبوع، كانت تلمح بطرف عينيها نظرات الرجل لها، عندما تخرج من الفيلا ليلا يتتبعها الرجل سيرا بداخل حديقته كأنه يودعها.

عندما تجلس على الأرجوحة في الحديقة وتبدأ في الاهتزاز يلتصق بسور حديقته ينظر إليه بحركة مستمرة وهي تهتز، لم تحاول قط الالتفات إليه، صنعت من التجاهل سياجا وأحاطت نفسها به، لكنه سياج هش لو أراد الرجل

لحطمه في ثوان لكنه لم يفعل.

في الماضي كان الرجل يسير في حديقته كأنه بمفرده في الكون كله، لا يلتفت للناس أو للأصوات، الحدود التي رسمها لنفسها خلقت له عالم آخر لا يعيش فيه أحدا سواه ولا يعلم أحدا أيضا إن كان راه واسعا أم ضيقا، كافيا أم ناقصا.

أما الآن فهو يحملق بجميلة كما لم يحملق في أحدا منهم من قبل كأن بداخله حديث لها يرغب في البوح به.

لم تجرؤ على النظر إليه، شعرت بالخوف منه، ودارت عدة أسئلة في ذهنها

ألهذه الدرجة أزعجه أدهم؟

هل يعرف أنه خطيبها؟

هل نظراته نظرات لوم لأنها من أتت به إلى هنا؟

لكنها مرة واحدة التي أزعجه بها أم أن هناك شيء آخر لا تعرفه؟

(١٠)

وقفت أمام أحد المحال لبيع مساحق التجميل والشعر المستعار، في غمرة تأملها انقطعت الكهرباء في الشارع وبدأ الجميع يخرجون الكشافات لحين عودة الكهرباء، اجتاح الظلام الشارع فآثرت الوقوف جانبا قليلا حتى عودة الكهرباء.

شعرت بأحد خلفها تشعر بأنفاسه الساخنة تلفح أذنها، التفتت ووجهت الكشاف في الجهة التي اعتقدت أن بها شخص ما لكنها لم تجد أحدا، تكرر الأمر معها أكثر من مرة لكنه يتلاشى سريعا مما أرعبها وجعلها تتسلل إلى شارع جانبي خوفا منه.

سارت بخطوات وئيدة تتلفت يمينا ويسارا سرعت خطواتها شيئا فشيئا ثم عدوت بكل قوتها وتوقفت صارخة عندما أمسك بشعرها لم تستطع أن ترى وجهه، كان يظهر كظل أسود كشبح غير محسوس وعندما أمسك بها وشعرت بقبضته لم تستطع رؤيته أيضا.

ساقها يمينا نحو سيارة من طراز قديم ثم ضرب رأسها بالنافذة صرخت صرخة عالية، سالت خطوط رفيعة من الدماء على وجهها تهشم الزجاج إلى قطع صغيرة تناثر بعضه

على الأرض وبداخل السيارة وعلق البعض الآخر في وجهها، قرب يده اليمنى ذات القفاز الاسود وأخذ يلتقط شظايا الزجاج من وجهها دون أن يبالي بصرخاتها، فتح باب السيارة ودفعها للداخل وأغلق الباب ثم اتجه إلى مقعد السائق وجلس يدير محرك السيارة.

هنا رأت وجه قبيح ملئ بالدمامل، يشبه وجه جارها غريب الأطوار، ابتسم لها بأسنانه الصفراء القذرة وأقترب منها فشمت رائحة فمه الكريهة ابتعدت حتى التصقت بالنافذة المهشمة زجاجها، قال لها بصوت أجش:

- لماذا ترتعدين هكذا ما جئت هنا إلا لأفعل ما تريدين وتتعرفين علي عن قرب أنت وأدهم.

استيقظت واعتدلت على سريرها وهي تلهث فقد أرعبها المنظر البشع لهذا الكائن الهلامي الغريب، لم تستوعب أنها بأمان وأن ذلك كابوس إلا بعد دقيقة، بدأت تهدأ وتشرب بعض الماء من كوب يظل بجانبها كل يوم طيلة الليل.

لابد أن يتوقف هذا الرجل عن إخافتها، هي لم تفعل شيء لم تؤذيه قط، لقد أبعدت أدهم عنه لماذا يثير الرعب فيها، ربما يستضعفها، يشعر بخوفها ويسمع دقات قلبها العالية كلما اقترب من سور حديقتها.

ما أن أفاقت وصنعت لها الخادمة فنجان من القهوة المضبوط حتى اتصلت بأدهم وأخبرته أن يمر عليها بعد عمله وأكدت عليه ألا يتخلف عن الموعد رغم زعمه أنه لن يستطيع المجيء إلا ليلا.

***

قال مروان:

- مسكينة جميلة، أول مرة تحكي عن امرأة عادية، دائما شخصياتك النسائية بهن خطأ ما

قالت:

- ماذا تقصد بخطأ ما؟

قال:

- في الحكاية الأولى نجد أن الجدة متسلطة، أمل ضعيفة، ليلى قاتلة، نادية ضائعة

سألته:

- ماذا تقصد بضائعة؟

قال كأنه محلل نفسي عظيم:

- نادية أرادت أن تكون شيء صنعت لنفسها كل الأدوات

التي تؤهلها لذلك وفي أول اختبار لاستخدام تلك الأدوات فشلت، بما أنك لم تكملين الحكاية فأعتقد -وهذا ما سأكتبه كتصور مني لاستكمال الرواية- أنها عادت اسوأ مما كانت عليه قبل التخطيط لمستقبلها

هل تخيلي هذا صحيح؟

تجاهلت سؤاله وسألته:

- وماذا عن ألقاب شخصيات الحكاية الثانية؟

كظم غيظه وقال:

- أما عن الحكاية الثانية نجد فيها لمياء النرجسية المحرضة على القتل، لذلك أقول إن جميلة هي الشخصية النسائية الوحيدة حتى الآن العادية.

قالت بتهكم:

- تحليل رائع وماذا عن الرجال؟

قال:

- الرجال في حكاياتك شخصياتهم طبيعية، أمير وفارس وطارق حتى أحمد ورحيم رغم أن دورهما صغير حتى الآن لكن شخصياتهم عادية، ربما أدهم غريب بعض الشيء خاصة بعد أن ورط جميلة معه وأصابها بالذعر لكني لم أعرف نهاية

قصته بعد، الوحيد المختلف هو أيمن وذلك نظرا لمرضه فقط لا غير.

شعر ببعض الحنق عليه وهي تقول:

- هل تظن أن شخصية فارس الأنانية الذي رفض البقاء مع ليلى شخصية عادية، وشخصية طارق الفضولية عادية أيضا؟

قال:

- فارس حقا أناني لكنه أمر يحدث مرارا أن يرتبطا اثنان عاطفيا ويفترقا، والفضول أمر طبيعي فينا جميعا ولا أظن أن فضول طارق كان سيوصل إلى موته لولا تحريض لمياء.

قالت:

- أنت متحيز لأبناء جنسك

قال:

- أنتِ أيضا كذلك.

***

جلسا متجاورين في الصالون، وضعت الخادمة عصير وبعض الحلوى وانصرفت لإعداد الغذاء، بدأت جميلة تحكي

له عن نظرات الرجل لها وكم هي مرعبة وذات معنى لكنها لا تعلمه، وعن عاداته التي تغيرت حيث كان يهيم في حديقته دون الالتفات إلى أي أنسان أو حتى أي كان حي لا ينتبه لنباح كلب أو مواء قطة، أما الآن فما أن يرى جميلة حتى يقترب منها ويحملق بها.

قال أدهم:

- ربما هو كذلك لكنك لم تنتبهي لذلك من قبل إلا بعد أن لفت نظرك إليه

قالت بضيق:

- لا لم يكن كذلك في السابق، تصرفاته اختلفت بعد الموقف الذي تسببت فيه أنت، أنا أعرفه منذ زمن ولم يكن كذلك

قال:

- تعرفينه؟ لا أحد يعرف عنه شيء وإن كان ما تقولينه صحيح فلابد أن نعرف عنه كل شيء

أدركت الآن فقط أنها تثير فضوله أكثر فتراجعت:

- لا داعي لذلك

قال:

- لماذا أليس من الأفضل أن نعرفه جيدا حتى تطمئني

كذبت قائلة:

- أعتقد أنه ربما سئم الوحدة وأراد التعرف علينا

ابتسم بسخرية، فهم على الفور أنها تداركت خطأها، قال:

- ليت ذلك يحدث

***

- ضع هذه الحقيبة في السيارة

قالها رحيم للخادم، وقف أمام باب الفيلا يودع جميلة قائلا:

- لم أرد السفر الآن، أشعر أنك لست بخير، هناك أمر ما لا أعرفه لذلك لم أرد السفر وأنا أشعر بالقلق عليك لكني مضطر لذلك

حاولت طمأنته قائلة:

- أنا بخير لا تقلق بشأني

تنهد بحزن وقال:

- في الحقيقة أشعر أنك كنت بخير قبل خطبتك

قالت:

- أدهم إنسان رائع وإذا كان غير ذلك لما أستمر في خطبتي معه

قال:

- في بداية الخطبة كنت سعيدة لكن أشعر أن هناك سر ما يجعلك غير سعيدة ومتوترة في الفترة الأخيرة

هزت رأسها نافية وقالت مداعبة:

- أنت فقط لا تريد أن أتزوج وأبتعد عنك

تقبل مداعبتها التي أكدت له أن هناك شيء ما يزعجها ويتعلق بأدهم، قبل جبينها، حمل حقيبة صغيرة في يده، أرتدى نظارته الشمسية واتجه إلى سيارته، فتح له السائق الباب الخلفي فركب ولوح لها بيده.

***

في اليوم التالي دق أدهم بابها نهارا، فتحت له الخادمة ودعته إلى الدخول بينما كانت جميلة في غرفتها.

عندما نزلت حيته ثم سألته:

- أليس لديك عمل اليوم؟

قال مبتسما:

- أخذت اليوم إجازة أود أن نقضيه سويا

تعجبت قليلا لكنها فرحت وابتسمت

أحاطها بذراعه وحاول أن تبدو زيارته مقنعة وهو يقول بأسلوبه الساحر القادر على الإقناع:

- سأعوضك غياب أبيك وكل يوم سأقضيه معك منذ الصباح وحتى المساء

قالت بضيق:

- حتى المساء؟

قال:

- أنت الآن بمفردك ربما يجب أن نأخذ هدنة من العهد الذي بيننا

سألته في شك:

- ولماذا كل هذا؟ إنها ليست المرة الأولى التي يسافر فيها أبي.

قال:

- لكنها المرة الأولى التي يسافر فيها وأنا في حياتك

أستطرد بهمس:

- ألا تريدين حبيبك بجانبك

تخلصت من ذراعه ببطء قائلة:

- أتمنى أن يكون غرضك البقاء بجانبي وليس بجانب شخص آخر.

سارت خطوات فلحق بها وأمسك بساعدها قائلا:

- أنا بالفعل هنا كي أكون بجانبك

قالت في ثقة:

- سنرى

أنقضى النهار في سلام كالمعتاد واستعدت جميلة إلى استقبال حججه الواهية التي تصب في نهاية الأمر إلى جارها، أعددت دفاعات قوية لكنها جميعا انهارت عندما قال لها:

- عرفت مطعم جديد يقدم طعام إيطالي رائع هل تودين تناول العشاء هناك الليلة

أخذت نفسا عميقا وأنزاح هم كبير عن صدرها وقالت فرحه:

- بالتأكيد

ثم ركضت إلى الأعلى وهي تقول:

- انتظرني عشر دقائق

قال مداعبا:

- عشر دقائق أنت لن تعودي قبل ساعة على الأقل

تسلل إلى الحديقة وهو ينظر خلفه ليأمن طريقه من ملاقاة جميلة فجأة، وقف على باب الفيلا بخطوات محسوبة حتى لا تراه من الأعلى، بدأ يراقب الفيلا المجاورة، وجد بابها مفتوحا ولا ينبعث ضوء من الداخل كأن المكان مهجورا، جال بعينيه في أنحاء الحديقة لم يجد الرجل، تقدمت قدمه خطوة في اتجاه الفيلا ثم تراجع، الطريق غير آمن الآن.

شعر بخطوات جميلة تهبط من الأعلى فاتجه يسارا يعبث ببعض الورود، شعرت بالضيق عندما رأت الباب مفتوحا، عندما خرجت ورأته يقف في الاتجاه المعاكس لفيلا جارها ارتسمت الابتسامة مرة أخرى على شفتيها.

***

في اليوم التالي استيقظت على ملامحه الجذابة وباقة

ورود حمراء مد يده بها قائلا:

- صباح الخير

اعتدلت والتقطتها مبتسمة وقالت:

- صباح النور، شكرا لك

قال وهو يهم بالمغادرة في سرعة ورشاقة:

- أنا في انتظارك بالأسفل لتناول الفطور معا

قالت: سألحق بك

أخذت تفكر أيبقى معها كل يوم منذ الصبح حتى المساء حقا كما قال، أمر غريب لم تشعر نحوه بالارتياح، وضعت باقة الورود على السرير بلامبالاة، لم تشعر أنها تعبر عن حبه لها بل هي بمثابة اعتذار عما جاء من أجله، نهضت من السرير وهي تدعو أن تخيب الأيام ظنها.

***

مر أسبوع وكان أدهم في الصباح معها بكل جوارحه وما أن يدخل الليل يسحب الرجل كل تركيزه وتبدأ جميلة في إعادة الكلمات لأكثر من مرة وشرح ما تقوله وما تعنيه مرارا بسبب قلة تركيزه معها وذات يوم كانا في الحديقة يتحدثان ولم ينتبه إلى حديثها كعادته فتركته غاضبه وصعدت إلى

الطابق العلوي، لحق بها وجلس بجوارها وحاول الاعتذار، سارت خطوات متجهة إلى البلكونة فسار خلفها ثم جلسا وسألته بعصبية:

- أدهم أنت لا تذهب إلى عملك، مر أسبوع وأنت بجانبي ليلا نهارا

قال وهو يراقب الرجل الذي بدأ في الظهور وعلى كتفه قرد صغير:

- أخذت إجازة وأبي لم يمانع

قالت:

- ليس معنى أن أبيك مالك الشركة التي تعمل بها أن تأخذ إجازة بدون سبب.

لازالت عينيه معلقة على الرجل الذي بدأ يلتقط أشياء من الأرض لم يتبينها:

- كيف بدون سبب وهل وجودي بجانبك ليس سببا!؟

لم تجب على سؤاله فقد بدا سخيفا وصوته خالي من أي تعبير ونظره بعيدا عنها، سألته آمله ألا ينتبه أنها تعد له فخا:

- هل عرفت جديد عن هذا الرجل؟

أجاب سريعا:

- هذا الرجل غريب حقا يعيش مع الحيوانات فقط، رأيت معه فأر أبيض وكلب وها هو الآن يظهر لنا وعلى كتفه قرد ومن يعلم ماذا لديه أيضا من حيوانات وكلهم يعيشون في مكان واحد، هل يعقل ذلك؟

أستمر في حديثه عن الرجل دون أن يشعر بذلة لسانه ودون أن ينظر إليها كانت عيناه معلقة على تحركات الرجل في حديقته، انتظرت جميلة أن يشعر بما يقوله ويتوقف فيعتذر لكنه لم يحدث فقاطعته قائلة:

- ماذا تظن نفسك فاعل بعد مراقبة هذا الرجل البائس الذي وضعه حظه السيء في طريقك؟

لم يلتفت لسخريتها وقال في حماس:

- آه لو تجربين تلك التجربة معي، هيا جربي شيء مختلف جربي شيء من أجلي.

سألته:

- ماذا تقصد؟

لمعت عيناه ونظر إليها أخيرا قائلا:

- ندخل معا إلى فيلا هذا الرجل

اتسعت عيناها وقالت:

- أنت مجنون هل تريد أن يستدعي لنا الشرطة أو يظننا لصوص فيطلق علينا النار!!

قال نافيا بيقين:

- سندخل صباحا أظنه لا يتواجد بالمنزل.

انفعلت قائلة:

- تظن؟ ألم تقل إنه لا يمكن أن يكون عمله في الصباح!

قال بتحد: أنا سأدخل إلى الفيلا ليلا أو نهارا حسب ما أشعر به وتهيأ لي الظروف أما أنت فلا داعي لدخولك معي أنتِ لن تفهميني إلا إذا كنت مغامرة وجريئة مثلي.

قالت في عصبية:

- هذه ليست جرأة هذه أفعال طائشة

قال بهدوء وحزم:

- أنا سأدخل وانتهي الامر

وقف ففعلت مثله ودفعت الكرسي في عصبية ونظرا إلى الفيلا في نفس الوقت فوجدا الرجل يسدد نظرات ثابتة وقوية كأنه سمعهما، تملك الرعب من جميلة وأمسكت بذراع

أدهم في خوف سائلة:

- هل تظن أنه سمعنا؟

قال بثقة:

- لا مستحيل

قالت:

- ولماذا مستحيل الهدوء يملأ المكان ربما تسرب إليه صوتنا

قال بيقين:

- لم يسمع لا تخافين

لم تبعث جملته الطمأنينة في نفسها وتلاقت عيناها للمرة الأولى مع عيني الرجل، الجمل في عينيه تتكون، الكلام يرص بجوار بعضه يريد الانزلاق إلى اللسان ليخرج على هيئة صوت ستسمعه لأول مرة، حركات جسده ونظرات عينيه كأنه رئيس دولة ديكتاتوري وهما رعاياه يتركهما يتحدثان يحللان يفكران ثم بضربة واحدة يقضي على العاصي والمتمرد منهما.

تشعر أنه المسيطر عليهما وليس العكس كما يزعم أدهم، يريد أن يقتحم حياته ويكشف المستور، الخوف أن يعريه

هو ويجرده تماما من جنونه الزائد وثقته الزائفة أن يجرده من أشياء من الصعب استعادتها.

***

الليل ينشر سواده

تحتضن السماء النجوم

يخرج الرجل يهيم على وجهه في الحديقة

يخطف نظر أدهم وتركيزه إلى أن يعود إلى الداخل

لقد كرهت جميلة الليل.

أين أدهم!؟

لقد كان معها منذ نصف ساعة تركته لتجيب على محادثة هاتفيه مع إحدى صديقاتها وعندما عادت لم تجده، توقعت أنه ربما هنا أو هناك، بحثت عنه ولم تجده، سيارته في مكانها وهو ليس بالفيلا، دعت الله الا يكون قد تسلل إلى فيلا الرجل، خرجت إلى الحديقة ونظرت إلى الفيلا المجاورة وسألت نفسها في خوف:

- أين أنت يا أدهم؟

هل دلف حقا إلى الفيلا؟

هل التقى به بالداخل؟

ربما يتصارعان الآن بينما هي تتساءل؟

ربما هدده بالاتصال بالشرطة فسارع بضربه على رأسه أفقده وعيه

هو الآن في طريقه إليها كي يستنجد بها لتشير عليه بما يفعله

بالتأكيد ستساعده لكنها لن تفعل قبل أن توبخه

وجدت يدا تخبط كتفها برفق يخرجها من دائرة توقعاتها، ورغم أنه خبط خفيف إلا أنه أفزعها وانتفضت ملتفه إلى صاحب اليد، كان أدهم وكان مبتسما منتشيا مما زاد من حدتها عليه وصاحت به:

- أين كنت؟

فأشار بعينيه إلى الفيلا المجاورة وابتسم، أمسك بيدها وجذبها إلى الداخل، شعرت بالنشوة تسير في يده، مزهوا بنفسه للدرجة التي لم يرى فيها الضيق في عيناها، أجلسها وجلس، قال وعيناه تلمع فرحا:

- لقد فعلتها

فهمت ما يرمي إليه وبرغم ما قابله في عينيها من

الاستهانة بفعله إلا أنه أكمل بحماس:

- لقد دخلت إلى الفيلا

أسندت ظهرها وسألته بلا مبالاة:

- كيف دخلت دون أن يراك الرجل؟

قال:

- لقد راقبته جيدا طيلة الأيام الماضية وعرفت أنه يمكث حوالي نصف ساعة في الحديقة كل يوم ويعود قبل أن تشير الساعة إلى الثانية عشر.

تنهدت قائلة:

- وماذا بعد؟

هدأت نشوة المغامرة الناجحة قليلا وقال بهدوء:

- كما توقعت رجل غريب الأطوار، عندما دخلت الفيلا وجدت رائحتها خليط بين رائحة الحيوانات والدم.

بدأ حديثه يلفت انتباهها وقالت: دم؟

قال: نعم، رائحة الدم تفوح وتختلط برائحة الحيوانات التي يربيها.

قالت:

- ربما الدم دم حيوانات

هز رأسه نافيا:

- لا أعتقد

قالت في اهتمام حقيقي:

- وماذا أيضا؟

قال:

الأثاث يبدو أنه كان ذات يوما راقيا وباهظ الثمن لكنه الآن مهترئ وألوانه باهته، يحتوي على بقع مختلفة الأحجام والألوان منها بقع مواد أراها لأول مرة ومنها بقع لدماء، كما أن الفيلا ليس بها كهرباء اعتمدت على قداحتي أمر غريب أن يعيش أحدا في هذه الأيام بدون كهرباء، كيف تعيش في هذا الظلام الدامس وكيف يخرج إلى النور بعد أن اعتادت عيناه الظلام، لابد أن هذا أكسبه بعض المميزات التي تتواجد بالمكفوفين كتقوية حاسة السمع، لكن إن كان أحب حياة الظلام ولا يهمه كل تلك القذارة التي حوله ، ألا ينزعج من الرائحة الكريهة المنبعثة من كل شبر في المكان.

الفيلا تبعث على الرعب والاختناق ضيفي على ذلك رائحتها الكريهة، وحوائطها الصفراء التي لا تخلو من

التشققات.

شردت بخيالها فيما يصفه وقالت:

- أمر غريب فعلا

قال:

- كنت أحسب الوقت بالدقيقة فمنذ أن راقبته لم يتعد النصف ساعة في الحديقة لذلك عندما أنتهى الوقت عدت سريعا متسللا خلف الاشجار التي تغطي جانب من الباب مثلما تسللت أثناء الدخول، تمنيت لو كان لدي وقت أطول لكنت تجولت في الفيلا أكثر فانا لم أصعد إلى الدور العلوي ولم أهبط إلى القبو.

قالت:

- وماذا تعتقد أن ترى بهما؟

قال:

- إذا كان بهو الفيلا بهذا السوء فكيف تكون الأدوار الخفية والبعيدة عن الأنظار!؟

تساؤله أثار الرعب في أوصالها فقالت:

- ماذا تظن أنه يوجد وراء هذا الرجل؟

هز كتفيه قائلا:

- لا أعلم لكن الأمر يبدو خطيرا

وقف يستعد للرحيل وقال بذهن شارد:

- لقد تأخر الوقت تصبحين على خير

وقفت وأمسكت بساعده قائلة برجاء:

- أدهم أنا خائفة لا تتركني وحدي اليوم

سألها ماذا تقصدين:

- أرجو أن تبيت هنا الليلة

رفع حاجبيه دهشة وقال: ألهذه الدرجة تخافين لم أكن أعلم ذلك

قالت: ستبيت على الأريكة التي في غرفتي

ضحك وقال مداعبا:

- في غرفتك؟ وماذا سيقول أبيك عندما يصل إليه الخبر

قالت:

- أنا لا أمزح أنا حقا خائفة ربما شعر بك وأنت بالداخل وهو كما ترى غريب وغامض ربما ليلا يتسلل إلى الفيلا

قال:

- معك حارس للفيلا وخدم لا تخافين

قالت:

- لا أنا خائفة ولن أشعر بالأمان إلا عندما تبيت معي الليلة

وافق على طلبها وأحتضنها في حنان وهو يمسح على شعرها برقة وبدأ يلوم نفسه على ما أصابها بسببه، لا تشعر بفداحة ما تفعله بالآخرين إلا عندما تراه يتجسد أمامك، تراه في عيونهم وتشعر به يسري في جسدهم الأهم أنك يجب أن تتراجع وتتوقف فورا لكن أدهم لن يفعل.

أحكمت غلق جميع نوافذ وأبواب الفيلا بنفسها، الأمر الذي كانت تتركه للخدم، الآن تصنعه بأيديها، أوصت الحارس أن يبقى يقظ طوال الليل ولا يغفو إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الأسود.

كانت تستمع إلى صوت أنفاس أدهم المنتظم الذي يدل على غوصه في نوم عميق بينما هي تقلق كثيرا ولم تنم سوى سويعات قليلة رأت فيها ما يكفي من الكوابيس لبقية عمرها.

***

بدد الصباح مخاوف الليل وهواجسه وإن كان قد ترك بعض الأثر، رأت الأريكة خالية كاد قلبها أن ينخلع لكنها تذكرت أن النور ملأ الكون ليحيط بها الأمان من كل جانب، تلك الليلة المرهقة التي لم تشعر فيها بالراحة طبعت على وجهها فظهر الإرهاق على عينيها وشحب لونها.

بدلت ملابسها وهبطت إلى الأسفل وهي تنادي بعصبية على خادمتها لتعد لها فنجان من القهوة ثم جالت بعينيها في بهو الفيلا تبحث عن أدهم فلم تجده، اتجهت إلى الحديقة وجدته يجلس على الأرجوحة يدخن سيجارة وأمامه فنجان من القهوة.

اقتربت منه وألقت التحية فردها ثم دعاها إلى الجلوس بجواره فجلست على كرسي أمامه وبدى عليها التعب وهي تقول:

- رأسي يؤلمني لم أنم جيدا ولن أتحمل الاهتزاز

سألها بهدوء عصبها كثيرا:

- لماذا لم تنام جيدا؟

زفرت وقالت:

- هل نسيت ما حدث بالأمس؟

بدى عليه أنه نسى فعلا وعندما تذكر قال:

- لم يحدث شيء لماذا تهولين الأمر لهذه الدرجة

ثم كست الجدية ملامحه وهو يستطرد:

- لماذا تفكرين دائما في النهايات وتخافين منها بينما لم تعيشين البدايات بعدا

قالت:

- ماذا تقصد بهذه الفلسفة؟

قال: هذه ليست فلسفة هذا واقع تعيشينه، هذه هي حياتك، إذا كنت تلومين على جرأتي وتلقبينها بأفعال طائشة فأنت أيضا أفعالك لا تتسم بالرزانة أنت ترتعبين من أقل شيء تخافين أن تخوضي تجربة فتفشلي أنت حتما تتوقعين خطبتنا ناجحة وإلا ما وافقتي عليها

قالت:

- ماذا تقصد؟

قال:

- أقصد أن الخطبة عامة تجربة ربما تنجح ربما تفشل

قالت بصوت مرتعش:

- هل ترى خطبتنا ربما تفشل

نفخ قائلا:

- أنا أتحدث بشكل عام

شعر بتوترها وهي تقول:

- لا أنت تقصد خطبتنا

قال:

- أرأيت كم ظهر القلق والتوتر عليك عندما اكتشفت أن تجربتك ربما تفشل

اغرورقت عينيها بالدموع وقالت بصوت حنون:

- لا أنا توترت عندما تصورت أنك ربما تبتعد عني

أوقف الأرجوحة ثم وقف وأمسك بيدها فوقفت جذبها نحوه وحضنها وهمس في أذنيها قائلا:

- لم أقصد ذلك كنت أتحدث فقط عن الاختلاف بين شخصياتنا، أنا أحبك مهما اختلفت عني حتى لو اختلفنا في كل شيء.

شعرت في حضنه براحة طمأنها بأنه لها ولن يتركها، لكن عقلها لم يهدأ ولم يطبق عليه الصمت كما أطبق على لسانها

بقية اليوم، تشتت بين حبها لأدهم ورغباته ومغامراته الغير محمودة عقباها.

في غرفة الجلوس جلسا يشاهدان التلفاز، وبفتور وكأنها تعلم جيدا نتيجة ما ستقوله قالت له:

- أود أن نترك الفيلا الآن ونذهب إلى مكان آخر

قال:

- لماذا تخافين لهذه الدرجة، هذا الرجل لم يتعرض لك بأي أذى هو منعزل عن الجميع كما قلت سابقا

صاحت به قائلة:

- نعم كان كذلك وأنت صممت أن تتعرف على هذا الرجل المنعزل وتدخل بيته الذي حرمه علينا جميعا فما كان منك إلا أن جلبت لنا الخوف والهلع.

ليتفادى الاعتراف بخطأه تناول الأمر من زاوية أخرى:

- ربما يجب أن تشكريني على ما فعلته، جارك لسنوات ولا تعلمين شيء عنه، ربما هو خطر على حياتكم وجئت أنا لأنبئكم وأكشف حقيقته.

قالت بتهكم:

- حقا!! هذا يعني أن فضولك توقف ولا تريد أن تتسلل إلى بيته مرة أخرى!!؟

صمت فوصلت إليها إجابته فقالت محذرة وقلبها ينفطر: إذا فعلتها مرة أخرى سوف تنتهي علاقتنا

سدد إليها نظرات غاضبة وترك الغرفة وخرج إلى الحديقة، تناولت الهاتف واتصلت بأبيها وأخبرته كل شيء، تحملت وابل من التعنيف لكل ما يحدث رغم أنها في الحقيقة لم تفعل شيء أدهم هو من قرر زيارتها يوميا وتسلل إلى فيلا جارها رغم معارضتها لذلك لكنها في النهاية تتلقى كل التوبيخ بمفردها، كأنه يلومها على حبها له واختيارها الغير موفق، يلوم المشاعر التي تدفق نحوه رغما عنها.

***

في غرفة ذات طراز كلاسيكي في باريس جلس رحيم مرتبكا بعد أن أنهى المحادثة مع جميلة، لا يدري ماذا يفعل أيتحدث إلى أحمد صديقه أم يتحدث مباشرة إلى أدهم أم ينهي هذه الخطبة، لا يشعر أن جميلة في أمان معه كيف يعطيها بيده له وهو يراه بحر هائج يجب تجنب النزول فيه، رفع سماعة الهاتف وألغى جميع التزاماته وحجز تذكرة طيران في اليوم التالي.

***

قال مروان عبر الهاتف:

- أعتقد أن جميلة ورحيم يضخمان الأمر ويعطياه أكثر من حجمه الطبيعي

قالت:

- لكن أدهم تسلل إلى بيت ليس بيته لرجل يخاف الجميع الاقتراب منه ومازال مصر على كشف أسرار لا تخصه، هل ترى ذلك طبيعيا؟

قال:

- ذكرني ما تحكيه بمغامرة عشتها عندما كنت صغير، انتقلنا للعيش في بناية جديدة وجميع السكان فيها مختلفين عن جيراننا السابقين ، دائما أبوابهم مغلقة بالطبع كانوا يأتون ويذهبون لكني لم أصادف ذلك، لم ألتق بأحد منهم على السلم أو أثناء لعبي بالكرة في الشارع مع أقراني، اشتعل فضولي يوما عند صعودي إلى البيت بعد شراء بعض الاحتياجات لأمي، رأيت أحدهم بابه مفتوح ولا أدري كيف تملكت الجرأة مني وتسللت إلى البيت أعتقد أنني كنت أريد فقط إلقاء نظرة لمعرفة ما يوجد خلف الأبواب المغلقة، عندما شعرت بخطوات لأقدام تقترب مني اختبأت سريعا

وظللت بمكاني ساعتين إلى أن استطعت العودة من حيث أتيت، ولم أكررها مرة أخرى عندما اكتشفت أن ما أعتقده أمرا عظيما كان أمرا عاديا، أم وابنتها تجلسان تتسامران وتتحدثان في أمور بدت لي وقتها غير مفهومة، الغموض هو الذي جعل الأمر العادي يكبر في نظري ويصير عظيما.

قالت:

- الغموض فقط! أنت مثل أدهم لذلك أنت متعاطف معه وترى ما فعله أمر عادي، مع الفارق أنك كنت طفل وإن عثر عليك أحد لن تلق عقوبة سوى تعنيف من والديك كما أنك لم تقدر قيمة ما سمعته إلا فيما بعد، أما أدهم فهو رأى ما كان يجب ألا يراه.

سألها بلهفة:

- ماذا رأى؟

***

أنهت المحادثة دون أن تعلم ماذا سيفعل أبيها، خرجت إلى الحديقة لتعلم أدهم ما فعلته لكنه اختفى مرة أخرى، نظرت في ساعة يدها وجدت أنه اختفى بالأمس في ذات الموعد فعلمت أنه تسلل إلى الفيلا مرة أخرى.

***

على عتبة باب الفيلا أخذ يتذكر تحليله عن الحياة التي يحياها الرجل في الظلام وأن تعود عيناه على الظلام لابد أنه أكسبه حاسة سمع قوية فإن كان هذا التحليل صحيحا فلابد أن يتوخى الحذر جيدا فقد تضاعفت قدراته السمعية وأي حركة يظنها بسيطة تصل إليه قوية.

معتمدا على قداحته وقف أدهم حائرا هل يصعد إلى الدور العلوي أم ينزل إلى القبو، كان يتلفت حوله كأنه يبحث على علامة تدله أيهما أكثر إثارة وتشويق الأعلى أم الأسفل.

في النهاية أختار القبو الذي دائما ما تختفي به الأشياء التي لا نرغب بها خاصة أن الطريق المؤدي إليه غريبا فقد كانت هناك فجوة في الأرض توصل إليه وقد نظر من خلالها فوجد درج يوصله إلى الأسفل.

تردد قليلا قبل الهبوط، نظر إلى الفجوة مفكرا كيف تصنع فجوة كبيرة كهذه وسط البهو المظلم الخالي من أي شعاع نورا بسهولة يمكنها أن تبتلع أي شخص سواء طفل أو بالغ، لم يصل لإجابة وليس هناك متسع من الوقت فلم يستمر في التفكير طويلا الأمر برمته غريبا، الفيلا أشبه ببيت أشباح ملحق بحظيرة حيوانات وصاحبها غريب الشكل والهيئة، عندما يهبط سيجد إجابة لهذا السؤال ربما يتناقش فيه

لاحقا مع جميلة إذا لم تنفذ تهديدها وتفسخ الخطبة.

هبط الدرج ببطء وبهدوء تام ثم سار بضع خطوات وكاد أن يرتطم بباب لم يستطع رؤيته من شدة الظلام الذي يواجهه معتمدا فيه على قداحته الصغيرة، أمسك بالمزلاج وفتح الباب ببطء وحاول تبين ما بالداخل لكنه لم يرى شيئا.

كان عليه أن يسير بضع خطوات إلى الداخل أولا، رغم أنه فرد ذراعه على آخره كي يسبق الضوء خطواته لكن الضوء شحيح مما أضطره للسير خطوات أكثر وفجأة أنغلق الباب محدثا صوتا عالي سار نحوه بسرعة متخبطا وحاول فتحه لكنه محكم الغلق حاول بكل قوته لكنه أبى أن يستسلم له ولأول مرة يشعر أنه في خطر وما كان يجب عليه أن يفعل ما يفعله.

توقف تفكيره عن البحث عما يرشده عن حقيقة الرجل وبدأ يبحث في القبو عن مخرج له، أحيانا كان يخيل إليه أن الرجل يهبط الدرج فكيف له الا يسمع ارتطام الباب فقد كان صوته مرتفعا.

هيأ نفسه للاعتذار وربما يجثو على ركبتيه أمامه كي يعفو عنه، لكن أذنه كانت تخدعه بخطوات واهيه وفي النهاية لا أحد يفتح الباب.

في النهاية هو بمفرده تماما.

بدأ يتعرق بشدة بفعل الحر وانغلاق المكان بالإضافة إلى خوفه، خلع قميصه الأبيض وبدأ يجفف به وجهه وصدره، خلع حذائه وجوربه، تجول في المكان ربما يعثر على شيء ينجيه لكنه خالي تماما وصغير جدا، أمر مثير للدهشة كيف فيلا بهذه المساحة ويكون القبو بهذا الحجم الصغير!!

هناك أمر ما غامض لكن لم يعد يهمه فها هو قد هبط إلى القبو معتقدا أنه سيرى العجائب وربما جثث وجماجم وأطراف مقطعة لكنه لم يجد شيئا.

أثناء تفقده للمكان وجد باب كان يظنه حائط، سلط الضوء على مزلاجه وأمسك به مبتهجا وفتح الباب معتقدا أنه سيصله إلى الفناء الخلفي للفيلا لكنه فوجئ بظلام آخر وما إن سار قليلا حتى أغلق الباب مرة أخرى رافضا كل محاولاته لفتحه.

الآن فهم الأمر.

يبدو أن هذا القبو مقسم إلى غرف صغيرة وعليه عبورها حتى يصل إلى الباب الرئيسي الذي يوصل إلى الفناء الخلفي للفيلا، لكن ما هذه المتاهة لماذا صممها هذا الرجل، هل يخفي هنا شيئا ما أم يتوقع أفعال الفضوليين أمثاله فصنعها

لهم خصيصا!

لعن لغز الرجل وتوقف عن التفكير الذي أتى به إلى هنا وهرع يفتح الباب لكن وجد باب آخر بجواره، تلك الغرفة كان بها بابان وأحتار أيهما يختار وكيف يختار الأصلح بينهما، بدأ العرق كأنه سيل على جسده وأرتعب أكثر كاد أن يبكي، نصحه الجميع أن يكف عن حماقته حتى لا يخونه ذكائه كما حدث اليوم فرفض، لكنه الآن يقسم أنه تعلم الدرس ولن يعود كما كان أبدا بعد اليوم.

أختار أحد البابان عشوائيا ليس أمامه حيلة غير الاعتماد على حدسه، كالعادة دخل وأغلق الباب خلفه لكنه لم يبال وهرع إلى الباب الجديد لكنه لم يفتح هذه المرة عاد إلى الباب السابق فلم يفتح أيضا.

دوت منه صرخة عالية وهو يقرفص في زاوية الغرفة الصغيرة ويخبط مؤخرة رأسه في الحائط بندم شديد ويبكي كطفل صغير فقد أمه في الزحام.

بعد أن هدأ قليلا أشعل ضوء قداحته مرة أخرى، قداحته تمثل عينيه، هو الآن يحمل عينيه بين يديه إن فلتت من يده لن يستطيع حتى البحث عنها، إن فلتت من يده سيفقد بصره.

بدأ يمسح الغرفة الصغيرة في يأس لا يعرف عن ماذا يبحث لكنه ظل يتفقد المكان، توقف عند هاتف موضوع على الأرض في زاوية، زحف إليه في سرعة ورفع السماعة ليجده يعمل، فرح وبدأ يدير القرص لكنه أكتشف أنه هاتف داخلي، فتيقن أنه وقع في فخ أعده له مالك الفيلا فأعاد السماعة ببطء ويأس وجلس ينتظر محادثته له.

***

مرت النصف ساعة التي يقضيها الرجل في حديقته يوميا وبدأ يتأهب للدخول إلى الفيلا، جميلة تراقبه بذهول تكاد تصرخ به أن ينتظر قليلا، فكرت أن تعطله لوقت من الزمن لكن ما رواه أدهم لها سابقا أخافها كثيرا.

أثناء اتجاهه إلى الداخل وقف ينظر إلى جميلة التي يبدو عليها القلق والخوف ولأول مرة يبتسم لها لكنها ابتسامة صفراء تعلن عن معرفته بكل ما يحدث وتنبأ أن أدهم لم يعد بأمان.

***

قالت لمروان عبر الهاتف:

- هل تظن أنه سينجو؟

قال بهدوء:

- أتمنى

قالت بخبث:

- أعلم أنك قد تعلمت الدرس ولن تسعى إلى مساعدته، أليس كذلك؟

صاح قائلا:

- هل مازال حبيسا؟

قالت:

- نعم

قال:

- هل أتصل به عبر الهاتف؟

قالت:

- كلا

سألها:

- وما فائدة الهاتف إذن؟

قالت بصوت هامس ذكره بفحيح الأفعى:

- فائدته أن يعطيه الأمل. الأمل الذي لن يراه أبدا.

كظم غيظه وهو يلعنهم جميعا هي ومن تحكي عنهم

سألته: هل تظن أنه مازال على قيد الحياة؟

قال: كم مكث من الوقت هناك؟

قالت:

- يومان

قال:

- كيف لم تبلغ جميلة الشرطة أو تبحث أسرته عنه؟

قالت:

- لقد جاءت الشرطة فعلا بناء على اتهام جميلة للرجل، ودخلت الفيلا مع رحيم وصديقه أحمد برفقة الشرطة، وجدت الفيلا كما وصفها أدهم بالضبط رديئة ورائحتها كريهة ويستحيل أن يعيش بها أناس طبيعيين.

أعطى الضابط للرجل إذن التفتيش وشرح له الشكوك المثارة حوله فلم يرد بل اشار لهم بالدخول وسمح لهم بالتفتيش وجلس على كرسي واضعا ساق على الأخرى وهو يتطلع بجميلة، يسدد إليها نظرات تعني أنه يعرف جيدا

مكانه لكن لن يجده أحد.

انتهى التفتيش وأعتذر الضابط له عن الإزعاج وعما أثير حوله من شكوك.

قال مروان:

- ألم يفتشوا القبو؟

قالت:

- لم يستطيعوا العثور على الطريق المؤدي للقبو

تعجب قائلا:

- كيف ذلك؟

قالت:

- لم يتوقع أحدا ألا يكون لقبو الفيلا باب، ولقد بحثوا وفتشوا جيدا ولم يجدوا باب يصلهم إلى القبو

قال: هذا يعني أنه حاول بطريقة ما إخفاء الفجوة التي هبط منها إلى القبو

قالت:

- نعم فهو لديه طاولة كبيرة مصنوعة من الرخام يضعها فوق الفجوة كلما...

هتف مقاطعا كلامها:

- هل هناك أحدا غيره بالأسفل؟

قالت:

- في الحقيقة أنا لا أعلم سوى قصة أدهم فقط

لا أدري كيف شعرت أنه على وشك سبها فقالت:

- أنا حقا لا أعلم

قال برجاء: أنت تعلمين أنني لا أعلم عنوان الفيلا، لكني أرجوك أن تدعيني أتدخل وإذا كنت لا تريدين أن تحكي المزيد من الحكايات فأنا أكتفي بهذا القدر.

قالت:

- يبدو أن الحكايات كافية لتعد رواياتك القادمة ولم تعد بحاجة لي

قال:

- ليس الأمر كذلك لكني أود إنقاذ أدهم

قالت بثقة تنبأ عن معلوماتها الجيدة عنه:

- أنت تود مزيد من الإثارة لتضيفه إلى رواياتك وتزيد

من مبيعاتها، أن يكون الكاتب جزء من روايته هذا أمر مثير لخيال القارئ

قال: لا أنا أود مساعدته

قالت: سبق وأن قلت لك أنني لم أختارك عشوائيا أنا أعرفك جيدا وأعرف أن المساعدة فقط ليس هدفك، على أي حال لي شرط

قال مرحبا:

- ما هو؟

قالت:

- تذهب بمفردك وألا تقول لأحد على ما تنوي فعله

وافق على الفور: موافق

قالت محذرة: إذا لم تفعل سأعلم وأنت تعرف أنني أعلم كل ما تفعله.

قال بحماس: أعدك أنني لن أفعل، العنوان لو سمحت.

***

وقف بين الفيلتين يفكر ماذا جاء به إلى هنا، ماذا يظن نفسه فاعلا، وتردد صدى كلماتها بأنه يريد الإثارة لعمله

ويريد أن يجعل نفسه جزء منه باقتحامه، أعترف لنفسه أن هذا السبب يحتل مساحة كبيرة من قراره لكنه مازال إنسان يحمل بداخله بعض التعاطف تجاه شخص أودى بنفسه إلى التهلكة ويريد إنقاذه.

لا شرطة تتعقبه ولا صديق يعرف أين هو، نفذ ما طلبته بالضبط فإن فقد مثل أدهم لن يجد حتى فتاة مثل جميلة تعرف مكانه وتبحث عنه.

ماذا لو هبط إلى القبو ولم يخرج مرة أخرى!؟

داهمه شعور بالخوف فكر في الانسحاب من لعبتها لكنه عاد يفكر أن لعبتها بالنسبة له عملا يريد أن يتقنه.

من هي التي تحدثه ومن يخنق سيدة عجوز ويحرض مراهق مريض على قتل الأبرياء ويحبس شابا آخر في قبو وكم شخص ياترى يوجد اسمه في لائحتها التي تحكي منها حكايتها!!

طرد تلك الاسئلة المصوبة بدقة إلى عقله وكادت تفجره وأتخذ قراره بالتسلل إلى الفيلا دون النظر إلى العواقب.

يبدو أنه جاء في الوقت المناسب، في الفيلا التي على اليمين تجلس جميلة على الأرجوحة في الحديقة، لأول مرة يرى شخصية من أحد الشخصيات الذي ظل يرسمهم

في خياله لمدة أسابيع، جمالها فرعوني كما وصفتها له لكن الحزن يكسو ملامحها وحزنها على فقد حبيبها يغزو جمالها ويطفئ من روعته.

المصير وإن كان قاس أن تعلمه أفضل من الانتظار ثم السراب وأدهم اختفى بدون أثر.

رأى جميلة وهي تسرق النظر إلى الرجل الذي التصق بسور حديقته، عيناها مليئة بالتساؤلات واليقين أن خطيبها محتجز لديه، يبدو أنها ألفت الجلوس هنا، تماما مثل الذي فقد عزيز عليه في البحر فيظل جالس أمامه يتخيل أنه وقت ما سيشق الأمواج الهائجة ويصعد على سطح البحر ضاحكا معلنا عن وجوده، كذلك جميلة تنتظر أدهم قادما إليها متسللا من الفيلا يحكي لها آخر مغامرة له فيها.

هذا الرجل لم يكن كما وصفته له، فهو جذاب وهيئته عادية، لماذا وصفته بأنه ذو ملامح حادة وملابس بسيطة جعلته يتصورها ليس فقط بسيطة بل مهلهلة أيضا، غضب قليلا فقد عاش في الحكاية بكل وجدانه ورسم بدقة الشخصيات والأماكن وفرح عندما أتيحت له الفرصة لرؤية بعض منهما، يعتقد أنه عندما يبدأ في الكتابة سوف ترهقه محاولاته ليقترب من الحقيقة التي تحيد عنها أحيانا.

دار حول الفيلا عدة مرات ووجد أن التسلل إليها لا يكون

إلا من خلال الفيلا المجاورة كما فعل أدهم، جميلة تجلس في الحديقة تنتظر الغائب والحارس يجلس أمام باب الفيلا يؤدي عمله.

لا مفر سوى الانتظار.

بعد قرابة الساعة دخلت جميلة إلى الداخل وغفل الحارس قليلا، واقتربت الساعة من الثانية عشر.

قفز فوق سور الحديقة وتسلل إلى باب الفيلا المجاورة ولحسن حظه الرجل لايزال في الحديقة إذن هذه كذبة أخرى لقد قالت إنه يقضي نصف ساعة يوميا فقط في الحديقة بينما تبين غير ذلك.

أعتمد على قداحته مثلما فعل أدهم ورأى الفيلا بشعة كما وصفتها له ورائحتها كريهة بالفعل وبدأ يتعجب من صدقها في وصف ما وكذبها في وصف آخر، أخذ يبحث عن طاولة رخام كبيرة، وجدها تسكن زاوية وتزينها زهريه مزخرفه فارغة.

كان عليه زحزحة الطاولة فأضطر إلى التعامل في الظلام فأغلق قداحته ثم بدأ في زحزحة الطاولة ثم اشعلها مرة أخرى عندما أنتهى، نظر أسفلها فوجد الفجوة التي حكت عنها هبط الدرج لكنه وجد بابان وليس باب واحد كما ذكرت،

أختار باب منهما وفتحه.

سار خطوات ثم أغلق الباب تلقائيا لم ينزعج فهو على علم بذلك، أتجه إلى الأمام باحثا عن الباب الآخر لكنه لم يفتح نظر يمينا ويسارا لم يجد شيئا، أين الغرف التي مر بها أدهم لماذا حبس في أول غرفة يقابلها؟!

بدأ الظلام وضيق الغرفة يداعب عقله ويخلق أوهام، أنفاس حارة تلفح أذنه فينفضها بعيدا عنه، شيء ما صغير يسير على وجهه، حاول التماسك وإبعاد هذه الخيالات عن عقله لكنها ظلت تطارده.

أنزوي وبدأ في مسح المكان مجددا فوقعت عيناه على هاتف لكنه لم يهرع إليه كما فعل أدهم فهو يعلم أنه هاتف داخلي لن يوصله لشيء عليه الانتظار ربما يتصل به الرجل وربما لا كما فعل مع أدهم.

لام نفسه على يقينه بالخروج من هذا المكان المقفر مصاحبا لأدهم ومنقذا له، من أين أتت هذه الثقة! ربما لأن مالك الفيلا يعاقب فقط من يتطفل عليه وهو لم يفعل وماذا إذا كانت محدثته هي أيضا متطفلة وماذا إذا كان يعرف بعلمه لما حدث لأدهم وأراد معاقبته هو الآخر!

القداحة تترك اثرا على إصبعه كلما أشعلها، لسعة خفيفة

بين المرة والأخرى، يجلس في الظلام لفترة ليرتاح إصبعه من اللسعات المتكررة والضغط على القداحة وحتى يوفر وقودها وتنير له الظلام أطول فترة ممكنة.

يسمع أصوات لم يستطع تمييزها كأن نباح كلب وصوت أبواب تغلق لكنها أصوات بالكاد يسمعها ليس لأنها بعيدة لكن الحوائط تبدو له عازلة للصوت، يصرخ بأعلى صوت فيسمع صوته مكتوما حتى ظن أن أدهم إن كان محبوسا بجواره تماما لن يسمعه.

بداخله يقين أنه لن يموت هكذا في هدوء وعزلة دون أن يشعر به أحد وفي اليوم التالي لوفاته يكتب أنه فقد ولم يعثر له على أثر، لقد أصبحت حياته السابقة نجمة بعيدة في السماء يستحيل لمسها، لكنه يرفض هذه النهاية فقد رسم نهاية أخرى بعد عمر مديد وأعمال أدبية متعددة، جنازة ضخمة وعناوين الصحف تنعي فقيد الأدب العربي.

انتفض على صوت رنين الهاتف الذي بدد وحشة القبو وفرح به بعد أن كان يتأذى سابقا من صوته المرتفع المزعج، أجاب بلهفه:

- من يتحدث؟

سمع صوت محدثته عبر الهاتف والذي ظل لأسابيع يسمعه

تقول وقد امتلأ صوتها شماتة:

- حسبت نفسك بطل وأردت أن تنقذ أدهم فتصنع النجاح وتحصد الأموال

قال: أنت!! لقد اعتقدت أن هذا هاتف داخلي كما قلت لي، لكنك كذبت على مثلما كذبت في وصفك لمالك الفيلا، ماذا تريدين مني؟

قالت: أريد معاقبتك.

قال: أنا لم أفعل لك شيئا.

قالت:

- هل أنت خائف.

قال بضعف: نعم

قالت:

- هل تعلم أن الخوف الشديد يزيد من الأدرينالين بغزارة وربما يؤدي إلى الموت فعلا.

سار الرعب في أوصاله شعر أنها إن لم تقتله سيقتله خوفه فعلا، حاول أن يظهر شجاعة وجرأة لكن صوته فضحه ووجد لا جدوى من ذلك قال:

- ماذا تريدين مني؟

قالت:

- في الحقيقة لقد بدأ الأمر معي برغبة عارمة في التحدث لأي شخص وكنت ذات يوم أتصفح جريدة فوجدت حوار وقد ذكرت فيه أنك تحب الكتابة في القضايا الغامضة والمغامرات كما ذكرت لك سابقا رأيت أنك الشخص الأنسب لسماعي، لا أريد أن أترك الحياة دون وضع بصمتي بها.

قال:

- ولماذا طلبت ألا أتدخل في الأحداث بعد أن جعلتيني جزء منها؟

قالت وهي تضغط على حروف كلماتها:

- أنا فقط التي ينبغي أن تتحكم في كل شيء.

قال:

- يبدو أنك أيضا تتحكمين بمالك هذه الفيلا.

قالت: أنا مالكة هذه الفيلا.

اندهش قائلا: وماذا عن الرجل الذي رأيته وحكيتِ عنه وحديث رحيم أنه يعيش هنا بمفرده منذ خمسة عشر عاما.

قالت: هذا الرجل بجوارك الآن.

تلفت حوله في رعب ارتفعت أنفاسه، ضغط بقوة على القداحة ودار حول نفسه في جميع الاتجاهات لم يجد شيء، قال بفزع:

- لا أراه لا يوجد أحد هنا أنت تريدين إفزاغي

قالت: لم أقصد ذلك بل قصدت أنه في غرفة مجاورة لك

سألها:

- لماذا تفعلين به هكذا؟

أجابت:

- هل تعرف من هذا الرجل؟

أجاب:

- لا

قالت: إنه أيمن

قال:

- أيمن! ألم تقولي إنه يبلغ من العمر ثمانية عشر عاما

تصنعت الدهشة قائلة:

- هل قلت ذلك؟

قال برجاء:

- لا يهم هذا الأمر الآن لم أعد أهتم، لقد جئت هنا بإرادتك فلا يجب عليكِ معاقبتي.

قالت:

- لذلك سأعطيك فرصة للنجاة وإن أضعتها لا تلم إلا نفسك

سألها في لهفة: ماهي؟

قالت: بعد قليل بعض الأبواب تكون مفتوحة والبعض الأخر مغلقة وعليك أن تبحث جيدا وتعتمد على خبرتك في المغامرات التي خوضتها، وخيالك الواسع الذي تطوعه لأمرك أثناء الكتابة الأمر ليس صعب لكنه يحتاج بعض الوقت.

تنفس الصعداء وضع يده على قلبه يهنئه فهناك فرصة للنجاة، قد ظن أنه سيبقى هنا يصارع الظلام وهو يلتقط أنفاسه الأخيرة، وأن القدر أراد له البقاء حيا في قبره قبل أن يأوي جثته.

سألها:

- يبقى فقط أن أعرف أي حكاية أنت بطلتها؟

قالت:

- أنا هن جميعا واسمي هو ليلى

تعجب وسألها:

- كيف ذلك كانت الأولى فتاة في العشرين والأخرى في الثلاثين

قالت:

- وها أنا الآن في منتصف الأربعينيات وهذا يعني أنني حكيت لك أكثر ما أثر في مشوار حياتي، أنا أحكي كي أترك ذكرى ولا يمر وجودي في هذه الحياة الكريهة كعابر سبيل، حياتي البائسة الشقية، لم أستمتع بها في طفولتي ولا شبابي ولا حتى في منتصف العمر، لقد حاولت التواجد مثلكم حاولت أكون منكم وأن أعود إليكم لكنني لم أجد موضعا لقدمي.

تشتت ذهنه عندما علم أن ليلى ولمياء والمرأة الأربعينية التي تحرك الرجل غريب الأطوار هن شخص واحد، وطرأ في ذهنه العديد من الأسئلة من بينهم أن لمياء ذكرت أنها تعيش بمفردها، فسألها ولازال الشك يستقر بداخله: ألم تذكري في الحكاية الأولى أن لديك أم وأخت أين هما، لماذا اختفيا في الحكاية الثانية، أريد أن أعرف ما وصلت إليه كل

منهما؟

ضحكت قائلة:

- حتى وأنت في وضعك هذا تفكر في عملك. هذا رائع

استطردت ببرود: ربما تجدهما في غرفة من الغرف المجاورة لك

شهق بصوت عالي ولم ينطق بحرف، لقد كانت أمل أم ضعيفة مغلوبة على أمرها حاولت بكل جهدها أن تظفر بابنتيها من براثن أمها، شعر في صوت ليلى بالحنان وهي تتحدث عنها، شعر أنها تعذرها على قلة حيلتها فلماذا تلقي بها هنا!

نادية أيضا كانت فتاة هادئة من الخارج ثائرة من الداخل، ثورتها خمدت سريعا وخيبة أملها في تطبيق ما تؤمن به في عالم حقوق المرأة جعل منها نسخة أخرى من أمها، هاتان مسكينتان لماذا تضع لهما نهاية كهذه!

شعر بمدى بشاعتها ولم تكن تسعفه الكلمات بوصف يليق بها فصمت حتى فقالت:

- لقد تركتهما بعد قتلي لجدتي وغبت عنهن لسنوات، عشت فيهم مع أيمن، عادا إلى هنا مرة أخرى فهذا منزل

أبي، وأخذت أمي تبحث عني وعندما عثرت علي أصرت أن نعيش جميعا معا وكان هذا ضد رغبتي تماما، عشقت الوحدة وكرهت كل من يذكرني بالماضي، البناية الخالية راقت لي وصحبة مراهق قتل من أجلي أعجبتني، لكنها أصرت على وجودي معها وبدأت تزورني كثيرا حاولت إبعادها لا أريدها لا أريد الماضي لكنها طاردتني.

كنت أحضر من الإسكندرية إليهن كل فترة فأصنع تلك الغرف دون أن يشعرن، حاولت التأقلم معهما ابتعدت واقتربت أكثر من مرة وفي النهاية لم أستطع البقاء معهما فكانا هن أول من ألقيا في غرف هذا القبو.

وجدتها فرصة أن أختفي من الإسكندرية بعد قتل طارق، سحبت أيمن معي، أردت أن أعيش معه فقط لذلك تخلصت من أمي ونادية، تخلصت منهما بدون نقطة دم واحدة كما فعلت مع جدتي، كنت حينها أكره منظر الدم ورائحته تصيبني بالغثيان، لكني لم أعد كذلك الآن.

وقد أرسلت أيمن بغرفة بجوارك فقد مللت الحياة هنا بعد ظهور أدهم ومللت أيمن أيضا، أريد بداية جديدة.

تابعت بفخر: هناك المزيد من الجثث حولك ولا أحد يستطيع أن يروي حكاياتهم غيري أنا

برقت عيناه ولم يدر ماذا يقول هل يطلب منها المزيد من معرفة أفعالها الإجرامية المريضة أم ينهي المحادثة ويبدأ في البحث عن مخرج من هذه الغرف المظلمة.

قطعت حيرته قائلة:

- إذا توصلت إلى مخرج من هنا سيستغرق هذا حوالي يوم كامل أعدك أن أتصل بك مرة أخرى وأملأ شغفك فأنا أعلم جيدا أن لعابك قد سال عندما ذكرت أن لدي المزيد، أحذرك فربما تجد جثث متحللة في طريق عودتك وربما أخرى لم تتحلل بالكامل، أيضا أنتبه إلى خطواتك فقد يختلط حذاءك ببراز وبول بعضهم وربما تجد من يلتقط أنفاسه الأخيرة من شدة الظمأ والجوع أنصحك أن تكمل طريقك وتتركه فلن يكون لديك ما تقدمه له بل عليك أن تتجنب أنت أيضا الجوع والعطش وأن تجد طريق الخروج قبل أن تلقى حتفك.

أنهت المحادثة وتركته في الظلام وحده، كان يوفر وقود القداحة أثناء حديثها معه، صوتها آنس ظلامه حتى وإن كان يتحدث عن أحداث بشعة حصلت وأحداث بشعة سيشهدها الآن.

هذه الغرف ذات الأقفال الأوتوماتيكية تفتح بعد قليل سيجري إلى الخارج بسرعة عالية، يجري بجنون ولن يتوقف

حتى إن وجد نفسه في الفناء الخلفي للفيلا، لن يتوقف إلا ليركب سيارة أجرة ويتجه بها إلى بيته.

سمع صوت الباب يفتح، صوت خافض للغاية لن يسمعه من أعتاد الضوضاء، ربما لأنه سكن الهدوء لعدة ساعات فصارت أذنه تلتقط الأصوات جيدا.

أمسك بالمزلاج وفتح الباب وابتسم عندما أطاعه وفتح له، أخذ يمسح المكان بقداحته الصغيرة ونعت نفسه بالأحمق عندما تذكر أن هناك اختراع اسمه كشاف للضوء يرحمه من هذا الضوء الضعيف ويرحم إصبعه من الضغط الذي يتعرض له، لقد تبع فعل أدهم عندما اعتمد على قداحته دون تفكير.

المكان خالي لا يوجد به أحدا، سمع صوت الباب الآخر يفتح تقدم خطوات إلى الأمام منتظرا أن يغلق الباب الذي خلفه لكنه ظل مفتوحا، ابتسم ها هي ليلى تغير القوانين من أجله، فتح الباب فاختفت الابتسامة، وجد جثة لشاب ملقاة على الأرض أهو أدهم أم شاب آخر لم تتحدث عنه!!

الشاب في مراحله الأولى بعد الموت يعتقد أنه أدهم، ممد على الأرض رأسه تستند إلى كتفه ناظرا إلى الأسفل بنصف عين مفتوحة شفتاه زرقاء وأذنه أيضا وكما قالت خلع قميصه وحذاءه وجوربه، نظر بالأعلى لم يجد كاميرات مراقبة، إذن هي نزلت إليه تأكدت أنه ميت ثم أغلقت الغرفة

وصعدت إلى الأعلى تمسك بالهاتف تكمل الحكاية وتصف ما فعله وكيف كانت هيئته.

كانت تتحدث فوق جثته.

سمع باب آخر يفتح فعبر فوق أدهم بعد أن حفظ ملامحه ووضع الجثة حتى يصف ما رآه بدقة في روايته، فتح الباب التالي فوجد هيكلين عظميين، وجدهما في وضع أدمى قلبه الرقيق، فخمن أنهما أمل ونادية، أحد الهيكلين يحتضن الآخر، شرد ذهنه من منهما كانت تختبئ بداخل الأخرى، ربما للوهلة الأولى أعتقد أن الأم لابد هي التي تحتضن ابنتها وتحاول طمأنتها، ربما حاولت إيهامها بأن هناك معجزة في طريقها إليهما أو ربما يلين قلب ليلى فتحن عليهما وتفتح لهما أبوابها في اللحظات الأخيرة.

تذكر كلمة أمه التي حرمت من إنجاب الإناث عندما قالت له ذات يوم أن الأم عندما تكبر تتبادل الأدوار مع ابنتها، فتصبح الابنة أم لأمها هي التي تحتضنها وتطمئنها وأحيانا ترشدها، كانت حزينة أنها لم يكتب لها ذلك ولم تنجب أنثى.

فأخذ يفكر لعل أمل هي التي تحتمي بنادية وهما يلتقطان أنفاسهما الأخيرة.

كيف تحيا فوق مقبرة جماعية دفنت بها الناس أحياء

سؤال يدق رأسه يأبى أن يفارقه منذ أن باحت بحقيقتها

كان صوت الباب يفتح وتزامن الصوت مع دموع تغلبت على مروان وسالت على وجنتيه، عبر فوقهما ودخل إلى الغرفة التالية وسار بضع خطوات ثم فجأة أغلق الباب التفت إليه ونظر إليه نظرات عدائية كأن الأمر بيده وتقدم نحوه يأمل أن ما جال في عقله ليس صحيح.

أمسك بالمزلاج وحاول فتحه لكنه أبى، فطن أنه عاد إلى القواعد الأولى لكنه يجهل الأسباب، ركل الباب بقدمه وتوالت الركلات بسرعة وقوة رغم أنه أدرك من الركلة الأولى أنها بلا جدوى.

سار خطوتين وهو يلهث حتى أصبح أمام الباب الآخر وبوهن ومعرفة مسبقة بنتيجة فعله حاول فتحه ولم يستجب، سند بكفه على الباب وشعر بإعياء شديد فجلس على الأرض.

بعد قليل ارتفع رنين الهاتف زحف في الظلام نحو الصوت وصرخ وهو يجيب:

- لقد فعلت كل ما أردت أنا جئت إلى هنا بمفردي لم أبلغ أحدا وجئت بإرادتك لقد منحتيني الأمل أنت وعدتيني أن أخرج من هنا

قالت له:

- لم أعرف أن ذاكرتك ضعيفة لهذه الدرجة ألم تتعلم فائدة منحي للأمل حتى الآن، أنا عندما أمنحه فلا أعطيه، لقد أنتهى دورك معي، لقد انتهى دورك في الحياة.

خرس صوتها لكنها لم تنهي المحادثة، أعتقد أن المحادثة الفائتة هي الأخيرة وإن عاد صوتها يتدفق عبر الهاتف سيكون في يوم آخر في عام جديد أنتهى فيه من كتابة حكايتها التي قرر -وهو في محنته هذه- أن يكتبها في ثلاثية، لكنها تعيد ترتيب ما أراده، لتصبح الندوة الفائتة هي الأخيرة والرواية التي نوقشت فيها آخر رواية له.

بدأ العرق يسيل من كل خلية في جسمه، خلع قميصه وحذاءه وجوربه مثلما فعل أدهم، يعلم تماما أن صراخه لن يجدي معها لكنه كان يصرخ ويبكي يستنفذ طاقته وأحباله الصوتية بلا كلل، يعلم أنها لازالت على الهاتف تتمتع بسماع صراخه لكنها لا تجيب.

أصاب الألم رأسه وبدأ يتنفس بصعوبة

جف حلقه

الضعف يملأه

يحاول التماسك

يزرع بداخله الأمل

يناجي ربه

فوتح الباب فجأة، كشاف من النور موجها إلى وجهه، أغمض عينيه لم يتحمل الضوء، لم يستطع رؤية حامل هذا الكشاف إلى أن سمع صوت أنثوي لم يسمعه من قبل يقول:

- أعطني يدك يجب أن نخرج حالا

حاول الوقوف لكنه خر مغشيا عليه.

أفاق ليجد نفسه على أريكة ناعمة في غرفة فخمة، نظر إلى المرأة التي تجلس بجواره والرجل الذي يقف خلفها ثم قال:

- من أنتما؟

قالت:

- أنا جميلة، من أنت ولماذا جئت إلى هنا؟

لاحت أمامه صورتها وهي تجلس على الأرجوحة ودقق بها جيدا فتأكد أنها هي بالفعل.

تذكر ما حدث وقال:

- أين أنا؟

قالت:

- في منزلي

أعتدل وهو يقول:

- كيف توصلت إلي؟

قالت:

- رأيتك وأنت تتسلل إلى الفيلا، تماما مثل أدهم فتتبعتك لعلني أصل إليه، هو أيضا تسلل إلى الفيلا بهذه الطريقة ولم يعد، رأيتك تهبط من الفجوة وبعد قليل هبط الرجل الذي نسعى جميعا خلفه، ثم ظهرت امرأة وغطت الفجوة بطاولة كبيرة من الرخام وصعدت إلى الأعلى.

استطردت وهي تشير الى الرجل الذي يقف خلفها:

صعدنا خلفها أنا وحارس الفيلا، سمعتها وهي تتحدث معك عبر الهاتف فضربتها على رأسها ثم هبطنا إليك وهو الذي حملك وأتى بك إلى هنا.

تذكر الغرف التي مر عليها فسألها:

- هل وجدت أدهم؟

غلبتها الدموع وقالت:

- وجدته ميتا

ما ظنه كان صحيحا، أدهم هو صاحب الجثة التي رآها، أنتفض واقفا، يريد اللحاق بها ومواجهتها قبل أن تهرب، يريد رؤيتها للمرة الأولى والأخيرة قبل الاتصال بالشرطة، خرج بخطوات واسعة رغم ضعف قواه وعدم اتزانه، فتبعته جميلة والحارس متجهين إلى الفيلا.

صعدوا إلى الطابق العلوي ودخلوا الغرفة وجدوها تسبح في بحر من الدماء، مستلقية على ظهرها على السرير، رأسها مهشم وعيناها مثبتتان إلى الأعلى.

نظر مروان إلى جميلة في شك، ارتسم الذعر على وجهها، انتفض جسدها وارتعش صوتها وهي تقول:

- لا تنظر إلى هكذا، لم أقتلها أنا فقط ضربتها على رأسها لتفقد وعيها، لم أقتلها

نظرت إلى الحارس وقالت له:

- قل له هل أنا قتلتها؟

وقبل أن ينفي الحارس صدقها مروان، تبدو رقيقة، حدسه يخبره أنها لا تفعلها، صمت قليلا ثم شك بشيء ما فسألها:

- هل صادفت مالك هذه الفيلا قبل أن تصلي إلي؟

أدركت ما يرمي إليه، برقت عيناها وقالت بصوت واهن:

- نعم لقد كان هناك بابان، فتحنا بابا فوجدناه في حالة إعياء حمله الحارس إلى الأعلى بينما اتجهت أنا إلى الباب الآخر فتحته وجدت الغرفة خالية ووجدت باب آخر وظللت أفتح الأبواب إلى أن وجدتك.

نظرت إلى الحارس وقالت:

- أين تركته؟

قال:

- في بهو الفيلا

نظرت إلى مروان وقد سيطر الخوف عليها وهي تقول:

- لم يكن أحدا موجود عندما دخلنا إلى الفيلا، أليس كذلك؟

قبل أن يجيب أغلق باب الغرفة فجأة، نظر الجميع إلى بعضهم في خوف وهلع ثم انطفأ الضوء فدوت صرخة قوية من جميلة.

تمت